مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Études sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الأول

2024

التاريخ والديناميات الاجتماعية
متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي
تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع
الجزء الأول
2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Études sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

MARRAKECH
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

Histoire et dynamiques sociales

Mélanges en l'honneur du professeur Hassan HAFIDI ALAOUI

Coordination :
Mohamed RABITATEDDINE et Mohamed ELAKLAA

Tome 1

2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources,
Mobilité et Attractivité - **LERMA**

MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵜ ⵏ ⵜⵓⵔⵣⵉ ⴷ ⵜⵙⴰⵡⴰⵍⵉⵏ ⵜⵉⵏⵙⵓⵖⵉⵏ - ⵎⵕⵕⴰⴽⵛ
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الأول

2024

محفوظة جميع الحقوق
©Copyright

الـتـاريـخ والـديناميات الاجتماعيـة

متنوعـات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علـوي

تنسيـــــــــق :محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

مـنـشـــــورات : مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية (LERMA)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة القاضي عياض، مراكش.

الإيداع القانوني : 2024MO0741

ردمـــــــــــك : 978-9920-8894-0-7

الطبـعـة الأولى : 2024

الطباعة والإخراج الفني : دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط

دار أبي رقراق للطباعة والنشر
10 شارع العلويين رقم *3*، حسان – الرباط
الهاتف : *83 75 20 37 05* - الفاكس : *89 75 20 37 05*
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com

ولـد حـسـن حـافـظي علـوي بزاوية أوفوس بإقليم الرشيدية في 24 رجب 1381 هـ/01 يناير 1962م، وتابع دراسته الثانوية بثانوية غريس بگلميمة، ثم التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس حيث ناقش دبلوم الدراسات العليا سنة 1989. وفي سنة 2005 حصل على دكتوراه الدولة من جامعة محمد الخامس بالرباط. وتتمحور أبحاثه حول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بالعالم الإسلامي في « العصر الوسيط »، وتاريخ الأفكار والتقنيات وتاريخ المؤسسات السياسية والاجتماعية.

الفهـــــرس

كلمة السيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية 9

كلمة السيد رئيس مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية (LERMA)..... 11

تقديم عام..... 13
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

التعريف بالأستاذ حسن حافظي علوي: مسار باحث حصيف..... 23
البيضاوية بلكامل

الفاعل المسؤول: قراءة في بعض أعمال مجموعة البحث في تاريخ المجال والإنسان بتانسيفت..... 33
محمد الأكلع

المحور الأول: إسهام الأستاذ حسن حافظي علوي في الدراسات الصحراوية

المقاربة المصدرية عند الأستاذ حسن حافظي علوي تجليات الامتداد ومسارات الإمداد... 51
محمد البركة

إعمال التعريفات لتجلية الفروق بين الصحراء والواحات: إسهام في دراسة حيوية المجال المعاشي بالمغرب الوسيط 83
سعيد بنحمادة

فقه البادية والتاريخ في مؤلفات الأستاذ حسن حافظي علوي..... 121
أحمد الصديقي

المحور الثاني: التاريخ والرواية

ما بين الرواية التاريخية والتاريخ من اتصال وانفصال 133
حسن أوريد

المحور الثالث: مصادر جديدة

نصوص تاريخية يمنية عن سلاطين الدولة العلوية مقتبسة من كتاب درر نحور الحور العين بسيرة المنصور علي وأعلام دولته الميامين للطف الله جحاف الصنعاني (ت 1243هـ/1827م)..... 141
عبد السلام محمد أحمد الصباري

أنظار في اختصار كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي 181
الوافي نوحي

المحور الرابع: المذاهب الإسلامية في فجر الإسلام

العبد والمولى في حركات الشيعة من الظهور إلى حركة المختار (38-67هـ/658-687م..... 195
عبد الحميد الفهري
المخاض المذهبي بالمغرب الإسلامي إبان عصري الولاة المشارقة والإمارات المحلية المستقلة..... 213
عبد الهادي البياض

المحور الخامس : نظرات في التاريخ المرابطي

أثر الحضارة الأندلسية في حضارة الغرب المسيحي زمن المرابطين 269
فائزة البوكيلي
الدولة المرابطية المشروع الوحدوي والسياسة الفكرية: مراجعات نقدية 281
أحمد الخاطب

المحور السادس: التصوف والقيم الإنسانية

التصوّف والمجتمع بإفريقيّة والمغرب بين القرنين السّادس والتّاسع للهجرة/الثّانـي عشر والخامس عشر للميلاد 331
محمد حسن
الصلات الصوفية والعلمية بين الزاويتين العياشية والقشاشية : التصوف الحاتمي والفلسفي وغريب المسائل..... 359
عبـد الله نجـمـي
في تاريخية مفهوم الكرامة..... 411
محمد موهوب

المحور السابع: التاريخ وصناعة الذاكرة

تقديس الشخص في الثقافة التركية: من جينكزخان إلى أردوغان 439
عبد الرحيم بنحادة
الثمثلات الخمسة لشخصية الأمير عبد القادر أو تاريخ جينيالوجيا البطولة والرمز 469
الجيلالي العدناني

المخاض المذهبي بالمغرب الإسلامي
إبان عصري الولاة المشارقة والإمارات المحلية المستقلة

عبد الهادي البياض(*)

شكلت اهتمامات الأستاذ المؤرخ حسن حافظي علوي في دراسة المذاهب الإسلامية مرجعا ملهما للفيف معتبر من الدارسين نسعد بأن نكون من ضمنهم ممن استقوا أثر بصمته من معين حفرياته الدقيقة في متون التراث المخطوط المحفوظ في الربائد المنسية دراسة وتحقيقا. فضلا عن انفتاحه في سياق توسيع مفهوم الوثيقة التاريخية على أساسيات مظان الفقه ومدوناته، وموسوعات النوازل والأحكام والأجوبة والحسبة، فضلا عن اعتنائه بكتب الفلاحة والبستنة والحيوان والبيطرة، والطب والصيدلة، والعقود والوثائق وغيرها من أجناس المصنفات الدفينة.

ومن خلال دراساته الأكاديمية رسم المؤرخ المحتفى به خريطة الأنساق المذهبية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، وسلك في بناء صرحها مسارات بحثية جادة ومتنوعة، إذ يجد المتصفح لمؤلفاته القيمة ودراساته الجادة جاذبية لا تقاوم في استقصاء المعرفة التاريخية بأمانة، وقراءة واعية بتجرد، ونقد بناء بموضوعية، وتحرير متين تؤثث فقراته رصانة اللغة وألق البيان ودقة التحري والتوثيق.

وتلك لعمري خلاصات سنوات مراس وخبرة أنتجت يمّا معطاء هادئا ما إن تحاول ركوب معترك عبابه حتى تكتشف بحرا متعالق الإشكالات والبنيات، متداخل المفاهيم والمصطلحات، مبهم الملل والميولات، ومتشابك الولاءات والعصبيات المذهبية، حينها تدرك أن خوض البحث في تاريخ المقدس مغامرة تكتنفها عقبات عديدة.

ونتشرف بأن نسهم مع الفضلاء القائمين على مبادرة تكريم الأستاذ المؤرخ حافظي علوي في سياق ترسيخ ثقافة الاعتراف بما هو أهله، من خلال مقالة موسومة بـ: «المخاض المذهبي بالمغرب الإسلامي إبان عصري الولاة المشارقة والإمارات المحلية المستقلة،» وهي تندرج ضمن

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز فاس.

صلب اهتمامات المحتفى به في دراسة المذاهب الإسلامية، بحيث فتح لنا نافذة من مشروعه العلمي نسهم من خلالها في إثراء حوار بناء بشأن القضايا التي تثيرها دراسة حركية المذاهب بالمغرب الإسلامي.

ولا يزعم صاحب هذه المقالة لنفسه القدرة على الإحاطة الشاملة بالمكونات المذهبية لبعض الإمارات الناشئة منها: نكور السنية ورودانة البجلية؛ بل حتى بعض التفاصيل الأساسية المرتبطة بالخوارج والأدارسة نظرا لشح الوثائق وندرة المعلومات. ولعل من بين عوامل نضوب معلوماتها في المصادر؛ إعراض مؤلفيها عن ذكر أخبار أصحاب المذاهب الموسومة بالنحل البدعية، ولذلك تعرض جزء من تراثها للإتلاف، وبعضها الآخر ما زال في حكم المفقود، إن لم يكن اندثر تحت وطأة الزمن.

وعليه فإن ما يتوفر عليه الباحث بشأن المذاهب المذكورة بالمغرب الإسلامي مشوب في الغالب بنظرة سلطة المتغلب الموجهة في أحكامها وتدبيرها بتقييم علماء المذهب السائد. وبالتالي فالباحث الذي ينهل من معين هذا الصنف من المصادر المشحونة بتعصب أصحابها ملزم باستنفار آليات الحذر في تمحيص أخبارها وإخضاعها لمختبر النقد والمقارنة.

وسنحاول انطلاقا مما تجود به المصادر من نصوص متاحة ربط المذهبي بالمستويين السياسي والاقتصادي؛ وذلك اعتمادا على الأسئلة الموجهة لإشكالية الدراسة والتي نوردها على النحو التالي:

ماهي حدود مسؤولية ولاة الخلافة المشرقية في ظهور تنظيمات الخوارج بالمغرب الإسلامي؟ وماهي عوامل نجاح الدعوة الشيعية في إعلان إمامتها في إفريقية، وتجليات تمددها على حساب الجغرافية المذهبية بمجال الدراسة؟

وهل استطاعت خلافة الأمويين بقرطبة تطويق المد الشيعي بالمغرب الإسلامي؟ وهل يمكن اعتبار تجنيد الخلافتين للقبائل المحلية أساس استمرار النزاع بالوكالة في المغرب الإسلامي؟

• ولاة الخلافة المشرقية وميلاد حركات الخوارج ببلاد المغرب الإسلامي

أسهمت السياسة المجحفة لمعظم ولاة الخلافة المشرقية بالمغرب الإسلامي في سوء تدبير شؤون العنصر المحلي البربري، وزيادة الاحتقان بين البربر، ورفضهم لسياسة التمييز المعتمدة من الولاة ونوابهم، ودافعوا عن صحة معتقدهم كمسلمين لا يجوز سبيهم ولا فرض الجزية على رقابهم، لاسيما وأن عمر بن عبد العزيز(99-101هـ/717-719م) أنصفهم ورفع الظلم عنهم، حيث عهد إلى واليه على إفريقية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، مولى بني

مخزوم[1] (100-102هـ/718-720م) «بإسقاط الجزية على من أسلم من البربر، وتحرير من استرق من نسائهم،»[2] واستمر في مناهضة الظلم وتحقيق العدل و«علّم أهل إفريقية الحلال والحرام.»[3] فنعموا بالعدل والمساواة في مدة خلافته القصيرة، خصوصا بعد أن عمل واليه المذكور على «إقرار القرى في يد غنامها بعد أخذ الخمس،»[4] وبالتالي وضعت سياسة عمر حدا لتعدي الولاة، فأقبل المغاربة على تعلم اللغة العربية و«غلب الإسلام على البربر.»[5]

وبتوجيهات الخليفة العادل سار واليه المذكور في البربر سيرة حسنة، حيث أسقط عنهم الكلف الجبائية، باستثناء الواجبات الشرعية كغيرهم من عموم المسلمين، فكان بذلك ابن أبي المهاجر «خير أمير وخير وال، وما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه.»[6]

وباستثناء مرحلة الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقد تعددت مظاهر سياسة تعسف ولاة بني أمية على شرائح واسعة من سكان المغرب، وخاصة ما تواتر في المصادر باسم سياسة «تخميس البربر.»[7] ذلك أن النقص الحاد في نسبة الغنائم والسبي بعد تراجع وتيرة الفتوحات وخصوصا بعد فتح الأندلس، نتج عنه تغافل الولاة عن الوضعية القانونية لبلاد المغرب، وتعاملوا مع أهلها على أساس أنها فتحت عنوة لا صلحا، سعيا منهم لإيجاد مبرر يمكنهم من إطلاق أيديهم في موارد مسلمي البربر، ومن هذا القبيل أن والي إفريقية يزيد بن أبي مسلم (101-102هـ/719-720م) استنسخ تجربة الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، ولا غرو فقد كان أحظى مواليه وصاحب شرطته،[8] كما أمعن يزيد هذا في إهانة مسلمي البربر، وفرض

(1) أحمد بن محمد ابن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس المغرب**، ج. 1، حققه وضبط نصه وعلق عليه معروف بشار عواد ومحمود بشار عواد (تونس: دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 1434هـ/2013م)، 76.

(2) محمود إسماعيل عبد الرازق، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن 4هـ** (الدار البيضاء: نشر وتوزيع دار الثقافة، ط. 2، 1406هـ/1985م)، 34.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، تحقيق معروف بشار عواد ومحمود بشار عواد، 77.

(4) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 34.

(5) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، **فتوح البلدان**، حققه وشرحه وعلق على حواشيه وأعد فهارسه وقدم له عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، د. ت)، 324.

(6) الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب (طرابلس: دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط.1، 1414هـ/1994م)، 61؛ البلاذري، **فتوح**، 332-324، ابن عذاري، **البيان** ج. 1، 76؛ أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج. 24، تحقيق عبد المجيد ترحيني (بيروت: دار الكتب العلمية)، 30؛ أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج. 1، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954)، 101.

(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 81.

(8) الرقيق القيرواني **تاريخ**، 62؛ ابن عذاري، **البيان** ، ج. 1، 77؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج. 4، حققه واعتنى به عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، 2012)، 146.

على من أسلم منهم الجزية.[1] وهذا الإمعان في التعسف أفرز ظهور حركات الخوارج.

كما عمد يزيد بن أبي مسلم إلى تمييز حرسه الشخصي من البربر، وأذاع في الناس خطوط سياسته القائمة على البطش، «فقام على المنبر خطيبا، فقال: أيها الناس، إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها،»[2] وكان قد عين حرسه من «البتر خاصة وليس فيهم من البرانس أحد،»[3] متأسيا بما درج عليه قادة الروم مع خاصة جندهم، وآية تمييزهم عن غيرهم أن يرسم على سبيل الوشم «في يمين الرجل اسمه، وفي يساره حرسي،»[4] وذلك حتى تتضح للعامة صفاتهم ومن وراءهم، فيسهل إرهابهم وخضوعهم للابتزاز ودفع الغرامات، لاسيما وأن يزيد بن أبي مسلم كان «ظلوما غشوما.»[5] ومن ثم كان الوشم علامة خاصة بحرسه «ليعرفوا بذلك من بين الناس، فإذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به.»[6]

وأحيانا كان بعض خلفاء دمشق يباركون سياسة ولاتهم التعسفية في المشرق كما في المغرب الإسلاميين لإتحافهم بنفيس الهدايا وملء خزائنهم بالمال المنهوب، وفي هذا الصدد أورد البلاذري مدى اعتداد الخليفة يزيد بن عبد الملك (102-105هـ/720-723م) بدهائه وغبطته بتجاوزات عامليه بكل من العراق والمغرب، بقوله: «ما مثلي ومثل الحجاج، وابن أبي مسلم بعده، إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا،»[7] في إشارة واضحة إلى تجاوز بأسهم كل الحدود.

---

(1) وخضع مسلمو خراسان سنة 110هـ/728م لمثل هذا التعسف من أشرس بن عبد الله، والي هشام بن عبد الملك عليها حين كتب لعامله ابن أبي العمرطة باستخلاص الجزية كما جرت بذلك العادة، فرد عليه عامله أن أهل بلدته من الصغد قد أسلموا، فكتب إليه أشرس: «إن في الخراج قوة للمسلمين، وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة، إنما أسلموا تعوذا من الجزية، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه.» ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 188.

(2) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 62؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 77. وذكر البلاذري ما يوحي بشروع يزيد بن أبي مسلم في تنفيذ خطته. البلاذري، **فتوح**، 324.

(3) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 62.

(4) المصدر نفسه، 62؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 77؛ محمود إسماعيل، **الخوارج**، 34.

(5) ابن عذاري، **البيان**، 1، 77.

(6) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 62؛ ابن عذاري، **البيان**، 1، 77.

(7) أكد البلاذري أنه «لما ولي يزيد بن عبد الملك، ولى يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف إفريقية والمغرب.» البلاذري، **فتوح**، 324. ووهم الناصري فنسب الاغتباط بيزيد بن أبي مسلم إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك. الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 102. والحال أن الأمر يتعلق بالخليفة يزيد بن عبد الملك، ولعل ذلك سقط منه سهوا لأنه أكد أن يزيد المذكور هو من عين يزيد بن أبي مسلم واليا على المغرب. الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 101؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 77؛ محمود إسماعيل، **الخوارج**، 37.

ومن الطبيعي جدا ألا تستسيغ طباع حرسه المغربي الإهانة الممعنة في إذلالهم، والخادشة لكرامتهم، فأجمعوا أمرهم، ودب بعضهم إلى بعض، وتعاقدوا على قتل يزيد بن أبي مسلم «وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى فلما خرج لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه»[1] سنة 102هـ/720م، ونصبوا عاملا يقوم بشؤونهم. ثم بعثوا بكتابهم إلى الخليفة يزيد موضحين موقفهم بعدم شق عصا الطاعة، ولكن استعبادهم غير مقبول من واليه، وقالوا: «إنا لم نخلع أيدينا من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون، فقتلناه، وأعدنا عاملك.»[2] وفي محاولة منه للتهدئة لم يؤاخذهم الخليفة بجريرة الاغتيال، بل حاول مجاراتهم فكتب لهم بما نصه: «إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم.»[3]

ويضاف إلى منقبة إسماعيل حفيد أبي المهاجر دينار السالف الذكر، وَمْضة أخرى مضيئة لوالي إفريقية من بقايا ولاة دمشق عبد الرحمان بن حبيب الفهري (127-139هـ/744-756م)، واستنادا إلى أصالة تجربة جده عقبة بن نافع انتزى عبد الرحمان بولاية إفريقية سنة 127هـ/744م،[4] بعد تدهور وضع الخلافة الأموية، وبعث له الخليفة مروان بن محمد الجعدي(126-132هـ/743-749م) بولايته على إفريقية بعد تغلبه عليها[5] «فكان أول ثائر متغلب على بلاد إفريقية»[6]- ومن مواقفه أنه أنكر على أبي جعفر المنصور (136-158هـ/753-774م) العباسي ما أمره به من ابتزاز لأهل إفريقية المسلمين على شاكلة ما كان معمولا به من لدن الأمويين، فبعث إليه برسالة قادحة في حلة ساخرة «ووجه إليه بهدية كان فيها بزاة وكلاب،»[7] وكتب إليه عبد الرحمان الفهري بما لا يروق له سماعه مؤكدا له: «إن إفريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها والمال، فلا تطلب مني مالا.»[8]

فغضب أبو جعفر وثارت ثائرته «وكتب إليه يتوعده.»[9] فلما تسلم عبد الرحمان الفهري رسالة التهديد التي بعثها له أبو جعفر المنصور سنة 137هـ/754م، أمر الفهري على

---

(1) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 62؛ البلاذري، **فتوح**، 324؛ أبو عبد الله محمد بن الأبار، **الحلة السيراء**، ج. 2، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس (القاهرة: دار المعارف، ط. 2، 1985)، 336 ؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 77.

(2) ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 146؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 103.

(3) المصدر نفسه.

(4) البلاذري، **فتوح**، 325؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 93.

(5) البلاذري، **فتوح**، 325؛ الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 75؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 92؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 117.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 100.

(7) الرقيقث القيرواني، **تاريخ**، 77، ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 99.

(8) الرقيقث القيرواني، **تاريخ**، 77؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 99؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 325؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 35.

(9) المصدر نفسه.

الفور بحشد الناس وهو في غضب شديد «فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم أخذ في سب أبي جعفر، وقال: إني ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به، حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل وإني الآن خلعته، كما خلعت نعلي هذا، وقذفه من رجله.»[1] ثم «أمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابا بخلعه، ويقرأ على المنابر في سائر بلاد المغرب.»[2] وعهد الفهري لابنه حبيب بولاية العهد.[3] هذه الومضات الإصلاحية المحلية لم تكن كافية لرد الاعتبار لكرامة العنصر المحلي، فاتسعت بذلك دائرة الاستقطاب لمذاهب الخوارج التي وجدت في قبائل البربر حاضنة لبرامج دعاتها.

وقاد الفهري سنة 135هـ/752م حربا ضد صفرية أبي قرة المغيلي بتلمسان فانتصر عليهم، وعصفت سطوته بفلول أتباعه.[4] وبالتالي أصبح الفهري محصنا في موقعه بعد هزيمة المغيلي، ذلك أنه ضبط «مدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وهي دار مملكة زناتة.»[5] ولما اندلعت الاضطرابات و«قتل مروان بن محمد بالمشرق[سنة 132هـ/749م]، وزالت دولة بني أمية، وبقي عبد الرحمان بن حبيب أمير إفريقية والمغرب.»[6]

واستنادا إلى رواية ابن عذاري يعدّ أبو جعفر المنصور العباسي ضالعا في تصفية عبد الرحمان الفهري سنة 137هـ/754م، لأن عدم انصياعه لرغبات الخليفة جعله هدفا سائغا لحقده، وتولى ذلك أخوا عبد الرحمان الفهري وهما إلياس -العامل من قبله على تونس- وعبد الوارث، على أساس أن تكون ولاية إفريقية والمغرب لإلياس «وتكون الطاعة لأبي جعفر المنصور،»[7] لاسيما وأن أخاه الخليفة أبا العباس السفاح (توفي في ذي الحجة 136هـ/يونيو 754م) هو من زكاه واقره في منصبه بإفريقية سنة 132هـ/750م،[8] بالرغم من كونه واليا سابقا بها لأعدائهم الأمويين، ومع ذلك رفض الفهري موافاة المنصور بما طلب من مال إفريقية وسبي حريمها.[9]

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ج. 24، 35.

(3) ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 92-94 و100-101.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 92.

(5) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 75؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 92-97. أورد ابن عذاري أن زناتة كانت تقوم بدعوة الأمويين، لما تقدم لهم من هجرة جدهم خزر بن صولات، وإسلامه على يد عثمان بن عفان. ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 274.

(6) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 76؛ مؤلف مجهول، **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2005)، 95؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 93.

(7) الرقيق القيرواني، تاريخ، 80؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 100؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 36.

(8) ولى أبو العباس على إفريقية عبد الرحمان بن حبيب، لأنه لما بلغته بيعة أبي العباس، كتب إليه بالسمع والطاعة، فأقره. ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 96؛ الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 77؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 35.

(9) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، ،99.

وبعد مضي أزيد من أربعة عشر سنة على إنهاء مهمة ابن أبي المهاجر «لم يطرأ أي تحسن على أوضاع البربر، إذ سرعان ما تم التراجع عن الإجراءات التي أقرها الخليفة عمر بن عبد العزيز»[1] وبالتالي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك إلى عبيد الله بن الحبحاب (116-123هـ/734-740م) بولاية إفريقية والمغرب سنة 116هـ/734م،[2] بالإضافة إلى عمله السابق من خلال الإشراف على خراج مصر، وأصبح الغرب الإسلامي تحت نفوذه.[3] وكان حازما مبالغا في نكبة قبائل المغرب الإسلامية، بحيث أورد ابن عبد الحكم وغيره أنه وجه نائبه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع «غازيا إلى المغرب، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان، ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه، وأصاب من الذهب والسبي أمرا عظيما، ولم يدع في المغرب قبيلة إلا أداخها، فملئوا منه رعبا وخوفا.»[4]

وبالمثل عانى أهل طنجة وما والاها محنا نفسية ومادية، من تجاوزات نائب ابن الحبحاب عليها عمر بن عبد الله المرادي،[5] لاسيما وأن ماضي أهلها القريب يشهد بحسن إسلامهم، ويمن بلائهم مع طارق بن زياد في نيل فخر فتح الأندلس، وبالتالي تنكر عمر المرادي لدورهم في تمهيد عمليات الفتح المذكورة، ولا غرو فقد كان المرادي يمتح من سيرة الحجاج في الظلم، «فأساء السيرة وتعدى، وأراد أن يخمس مسلمي البربر، وزعم أنهم فيء للمسلمين.»[6] والغالب على الظن أنه أقدم على تخميس بربر طنجة، في تحد سافر وتنكر واضح لصدق إسلامهم، بدليل تعليق ابن عذاري المشحون بالاستهجان لسوء تصرف المرادي في تخميس أهل طنجة بقوله: «وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله،»[7] وبالتالي شعر البربر بالظلم وشدة الحيف «فنفرت قلوب البربر عنه وأحسوا بأنهم طعمة للعرب،»[8] فكان سوء تصرفه هذا «سببا

---

(1) لطيفة البكاي، **حركة الخوارج، نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، (37-136هـ)** (بيروت: دار الطليعة، بيروت، ط. 1، يناير، 2001)، 216.

(2) ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 210.

(3) أورد الرقيق القيرواني أنه: «ولي إفريقية وذلك في ربيع الأول سنة 116هـ/734م، واستخلف ولده القاسم على مصر، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج، واستعمل على طنجة ابنه إسماعيل، وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازيا إلى المغرب.» الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 66؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 105-106. وقال ابن الأثير إن هشام ولى ابن الحبحاب إفريقية وعزله عن ولاية مصر. ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 220-224.

(4) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 66؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 81؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 220. لكن يورد ابن الأثير أن ولاية ابن الحبحاب كانت سنة 117هـ/735م. ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 224.

(5) النويري، **نهاية**، ج. 24، 31.

(6) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 81؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31.

(7) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 81؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31.

(8) الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 106.

لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد،»[1] في إشارة ضمنية إلى ثورات الخوارج التي اتخذت من العدل ومناهضة الظلم شعارا لها. والحال أن الولاة الذين سبقوا المرادي إنما كانوا «يخمسون من لم يؤمن منهم ولم يجب إلى الإسلام.»[2]

هذا ويضاف إلى سياسة تخميس الولاة لمسلمي البربر، إبداء التعصب للجند العربي عن نظيره البربري في توزيع الغنائم والقتال واقتحام المخاطر، يبدو ذلك جليا في المظلمة التي رفعها الوفد المغربي الذي سافر من طنجة إلى دمشق محملا بمطالب قبائل المغرب ومعاناتهم، فاستقبلهم حاجب الخليفة هشام بن عبد الملك(105-125هـ/723-742م)، فقالوا له: «أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا غنمنا نفلهم دوننا...وإذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم.»[3]

وبالتالي انتهى هذا الاحتقان باغتيال أهل طنجة لعامل ابن الحبحاب عليها عمر بن عبد الله المرادي سنة 121هـ/738،[4] في خلافة هشام بن عبد الملك، فكانت هذه العملية ممهدة لما عرف في مصادر الحقبة التي نحن بصددها بثورة البربر التي أطرها الخوارج سنة 122هـ/739م،[5] حيث «تداعت برابر المغرب بأسره، فثارت البربر بالمغرب الأقصى، فكانت أول ثورة فيه وفي إفريقية في الإسلام.»[6] وعليه فقد أسهمت سياسة ولاة الأمويين في «إثارة مشاعر الحقد والكراهية عند البربر مما أوجد مناخا ملائما لانتشار مذهب الخوارج.»[7]

وتجدر الإشارة إلى أن دعاة الحركات الخارجية المندحرة في المشرق، وجدوا في وضعية قبائل بلاد المغرب الإسلامي ومعاناتهم من جور ولاة الخلافة المشرقية، تربة لاستنبات فكر الخوارج في بيئة البربر من خلال رفع شعارات المساواة ونبذ العصبية، ومقاومة الجور وإقامة العدل. ذلك أن النحلة الخارجية كانت «قد سرت في البربر وتنقلها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين إلى المغرب، نزعوا بها إلى الأطراف داعين أغمار الأمم إليها عسى أن تكون لهم دولة، فاستحكمت صبغتها في طغام البربر، ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب في خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب.»[8]

---

(1) ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 81.

(2) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 81؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31.

(3) أحمد عزاوي، **مختصر تاريخ الغرب الإسلامي** (الرباط: ربا نيت، 1428هـ/2007م)، 51.

(4) النويري، **نهاية**، ج. 24، 31. أورد الناصري أن المرادي قتل سنة 122هـ/739م. الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 107.

(5) النويري، **نهاية**، ج. 24، 31.

(6) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 82؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31.

(7) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 35.

(8) الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 107.

وبحكم معاناتهم كانت لهم القابلية للانخراط في حركات ثورية تنشد تغيير أوضاعهم، بالرغم من عدم إدراكهم لمبادئها في الاعتقاد. ويتضح من سرعة استجابتهم لدعوات الخوارج الصفرية والإباضية أنهم كانوا بدورهم يتطلعون لبزوغ فجر أية قوة أو عصبية اجتماعية أو مذهبية تخلصهم مما هم فيه من محن نفسية ومادية.[1] خصوصا بعدما حسن إسلامهم، فلاحظوا «تناقضا صارخا بين تعاليم الإسلام ومبادئه بما تنطوي عليه من عدل ومساواة وبين سياسة الأمويين الأواخر الجائرة، فأقبلوا على اعتناق مذهب الخوارج وهو في جوهره مذهب ثوري.»[2]

وبالتالي تم تأطير ثورة البربر ضد ولاة الخلافة المشرقية بالمغرب ضمن مذهب الخوارج الصفرية، وقد أورد ابن الأثير ما يفيد أن سواد مسلمي البربر كانوا يميزون بين غفلة الخلفاء وتعسف ولاتهم «وكانوا يقولون لا نخالف الأئمة بما تجني العمال،»[3] بدليل أن قائد الثورة ميسرة المدغري دعاه ابن عذاري بـ «رأس الصفرية، أمير الغرب،»[4] والذي يدعوه ابن الأثير ميسرة السقاء،[5] شرع في تحريضهم بالخروج على ولاة الجور الأمويين، فطلبوا منه ضرورة التحري والتبين من حقيقة موقف الخليفة هشام بن عبد الملك، فرحلوا إلى دمشق، فاستقبلهم حاجبه الأبرش الكلبي وقالوا له: «أبلغ أمير المؤمنين...أنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد فاحتملنا ذلك. ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا لم نجد هذا في كتاب [الله] ولا سنة[رسوله] ونحن مسلمون. فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا؟»[6]

والظاهر حسب تتمة الرواية أن الحاجب لم يهتم بشكايتهم لطول انتظارهم حتى نفد زادهم «وتيقنوا من تواطؤ الخليفة مع عماله،»[7] ثم عادوا أدراجهم إلى المغرب، وهم عازمون

(1) ومن بين أمثلة التعسف التي طالت الثروات المادية لبربر المغرب من قبل ولاة بني أمية، استهداف مصادر أرزاقهم بالضرائب المجحفة والإجهاز على ماشيتهم للحصول على أنواع مميزة من الجلود، وفي هذا قال الناصري: «وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربرية مثل الأدم العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالون في جمع ذلك وانتخابه حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر فأجمعوا الانتقاض.» الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 106؛ محمود إسماعيل، **الخوارج**، 37.

(2) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 40.

(3) عزاوي، **مختصر**، 51.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 83.

(5) ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225.

(6) عزاوي، **مختصر**، 51؛ محمود إسماعيل، **الخوارج**، 64.

(7) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 37.

على الثورة على عامل طنجة المرادي لسوء سيرته في أهلها.[1] وإلى جانب تخميس مسلمي البربر، وبإيعاز من الوالي ابن الحبحاب تعسف عماله -بما فيهم المرادي- على مسلمي البربر لتلبية رغبات خليفة دمشق وأمرائها بالهدايا وكانوا «يبعثون لهم بالبربريات المسبيات.»[2]

وبالتالي فإن تجاوزات ولاة الخلافة الأموية المذكورة؛ بما فيها ازدراء الوفد العائد بخيبة أمل من دمشق، كانت كافية لتبرير ثورة البربر على والي هشام بن عبد الملك وعماله.[3] وحينئذ عقد البربر العزم على الثورة على المرادي «وقدم من بطنجة من البربر على أنفسهم ميسرة السقاء المدغري، وكان خارجيا صفريا، وقصدوا طنجة، فواجههم عمر بن عبد الله فقتلوه واستولوا على طنجة، وبايعوا ميسرة بالخلافة.»[4] وعين من قبله على طنجة عبد الأعلى بن حديج.[5] ثم توجه البربر بقيادة زعيمهم ميسرة «وزحف إلى إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب إلى السوس، فقتله.»[6] غير أن أتباع ميسرة نقموا عنه أشياء «فأنكرت البربر عليه سوء سيرته، وتغيره عما كانوا بايعوه عليه،»[7] وكانوا بايعوه بعد مقتل المرادي بالخلافة، ولما لم ينضبط لشروط الثوار وضوابط الثورة «قتلوه وولوا أمرهم بعده خالد بن حميد الزناتي.»[8]

استأنف الخوارج الصفرية شرارة الثورة ضد تعسف ولاة الخلافة الأموية بزعامة خالد بن حميد الزناتي،[9] وحققوا انتصارات على قوات خالد بن أبي حبيب قائد ابن الحبحاب في غزوة الأشراف،[10] فغضب الخليفة هشام للخسائر البشرية؛ حيث أثخن الصفرية قتلا في

---

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 82.

(2) المصدر نفسه، ج. 1، 82.

(3) البكاي، **حركة الخوارج**، 219.

(4) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225. يجعل ابن الأثير ولاية ابن الحبحاب وثورة ميسرة سنة 117هـ/735م، ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 224-225. ويصف ابن عذاري وبن الخطيب ميسرة المدغري بالحقير. ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 82. محمد بن عبد الله لسان الدين ابن الخطيب السلماني (ت 776هـ/1374م)، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**، القسم 3، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني (الدار البيضاء: دار الكاتب، 1964م)، ،181. أما ابن خلدون والناصري فيدعوانه بالخفير. ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 245؛ والناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 107-111.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 82؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 107.

(6) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 82.

(7) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 83؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31.

(8) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67، ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 84؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 109.

(9) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 65.

(10) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 68؛ النويري، **نهاية**، ج. 24،31؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 109.

كتائب جند العرب «فقتل في تلك الوقعة حماة العرب، وفرسانها، وكماتها، وأبطالها.»[1] فعزل الخليفة ابن الحبحاب في جمادى الأولى سنة 123هـ/740م.[2] وتوعد الثوار المغاربة بقوله: «والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخرهم عندي، ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي.»[3]

وكان من النتائج المرحلية لثورة البربر «انتقاض البلاد الغربية والأندلسية»[4] على ابن الحبحاب، «واضطرم المغرب نارا، وفشت نحلة الخارجية في جميع قبائله وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد.»[5] وبالتالي لما عزل الخليفة هشام واليه ابن الحبحاب؛ أقام مقامه كلثوم بن عياض القُشيري «وعقد له على اثني عشر ألف فارس من أهل الشام، وكتب إلى والي كل بلد بالخروج معه؛»[6] لتعزيز صفوف الجيش المرابط بإفريقية، سعيا لقطع دابر ثورة زعيم الصفرية الجديد خالد بن حميد الزناتي.

غير أن عدم استيعاب الخليفة للمتغيرات الاجتماعية والمذهبية التي كانت وراء تأجيج الثورة، فاعتمد المقاربة الأمنية وعهد إلى كلثوم بن عياض لإخماد الثورة فلما حل بالقيروان «أساء السيرة في أهلها»[7] مما أجج من نقمتهم عليه. يضاف إلى ذلك حدة الخلاف بين الجند الشامي الوافد مع كلثوم والجند العربي المرابط بإفريقية ومعهم جند مصر؛ فكان ذلك سبب هلاكهم.[8]

مقابل ذلك كان الخوارج الصفرية أكثر تنظيما ووحدة وحماسا للنزال؛ فاعترضوا سبيل الجند العربي الشامي بالقرب من وادي سبو بقيادة خالد بن حميد الزناتي، «وحاطت خيل البربر ورجالتهم كلثوما وأصحابه فقتل كلثوم، وحبيب بن أبي عبدة، وسليمان بن أبي المهاجر، ووجوه العرب،»[9] ولاذت فلول العرب المنهزمين بالفرار إلى إفريقية وسبتة والأندلس.[10] وتسلل منهم إلى المغرب الأوسط القائد «بشر بن بلج القشيري بجند الشام ناجيا من وقعة

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 84؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225.
(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 84؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 109.
(3) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 68؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 225.
(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 84.
(5) الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 108.
(6) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 65؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 84؛ النويري، **نهاية**، ج. 24 ،31.
(7) الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 110.
(8) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 65؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 85.
(9) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 86؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 110-111.
(10) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 72؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 86-91؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 111.

[عمه]كلثوم بن عياض.»[1] ثم تحين فرصة الدخول إلى الأندلس فوثب بلج على أميرها عبد الملك بن قطن واستولى على الأندلس؛ وبها كان حتفه حيث هلك من الجراح التي نالته سنة 124هـ/741م.[2]

إن أصداء الهزيمة التي ألحقها الخوارج الصفرية بابن الحبحاب أولا؛ ووقع الخسائر البشرية التي تكبدتها قوات الدعم الشامية، حيث أسفرت عن مقتل الوالي الجديد كلثوم بن عياض ووجوه قادة جيشه،[3] أملت على الخليفة هشام نقل واليه على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي؛ وعهد إليه بولاية إفريقية والمغرب سنة 124هـ/741م لتدارك الموقف، فحقق نتائج إيجابية في وقعتين: الأولى هزم فيه عكاشة الصفري الخارجي في وقعة القرن، فقتل من البربر ما لا يحصى كثرة، وسيق عكاشة إلى حنظلة أسيرا فقتله.[4] والثانية تتعلق بوقعة الأصنام الفاصلة التي قتل فيها «مائة ألف وثمانون ألفا وكانوا صفرية يستحلون النساء وسفك الدماء.»[5] وبالتالي ذاع صيت هزيمتي الخوارج في القرن والأصنام، وتداول الناس أخبار المعركتين بنوع من الفخر؛ إلى درجة أنهما قورنتا لمن لم يشهدهما بغزوة بدر الكبرى.[6]

ولعل المواجهات الضروس بين ولاة الخلافة الأموية والخوارج الصفرية، كانت وراء اقتناع دعاتها بالهجرة إلى مجالات بعيدة عن نفوذ ولاتهم، ولهذا اختار البرغواطيون الذين شاركوا في ثورة ميسرة إعلان قيام إمارتهم بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك بسنتين (ت125هـ/742م).

وأحيانا كان الاقتتال الصفري الإباضي مدعاة للبحث عن أماكن منعزلة عن نقاط التماس لتفادي الاحتكاك المذهبي؛ من ذلك أن الخوارج الصفرية استغلوا الاقتتال بين الفهريين بعد مقتل إلياس بن حبيب بن عبد الرحمان الفهري سنة 138هـ/755م،[7] فاقتحمت جموع

(1) ابن الأثير، **الكامل**، 5، 75.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 87؛ ابن الأثير، الكامل، ج. 4، 273-274؛ أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ج. 1، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1408هـ/9881م)، 236-237.

(3) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 68-69؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 88؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 31؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 113.

(4) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 69-71؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 89؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 33؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 226-227.

(5) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 72؛ ابن عذاري، البيان، ج. 1، 90؛ النويري، نهاية، ج. 24، 34؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 113؛ ابن الأثير، الكامل، ج. 4، 226.

(6) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 72؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 90؛ النويري، نهاية، ج. 24، 34.

(7) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 80؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج. 4، 227.

ورفجومة الصفرية مدينة القيروان «فاستحلوا المحارم، وارتكبوا الكبائر،»[1] «فدخلوا القيروان وربطوا دوابهم في المسجد الجامع، وقتلوا كل من كان من قريش، وعذبوا أهلها،»[2] ولم يخرجهم منها إلا الخوارج الإباضية بعد قتال استغرق ثلاث سنوات. فلما تغلب زعيم الإباضية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري على طرابلس، توجه بجموعه نحو القيروان فالحق الهزيمة بصفرية[3] ورفجومة سنة 141هـ/758م، بعد أن «تغلبوا على القيروان سنة وشهرين،»[4] وأرغمهم أبو الخطاب على مغادرة القيروان؛ وجعل عبد الرحمان بن رستم(ت168هـ/784م) واليا عليها، وعاد إلى طرابلس.[5]

كما أسهمت مواصلة الخليفة المنصور العباسي لسياسة التطهير ضد أئمة الصفرية وأتباعهم؛ في اقتناع زعيم مكناسة المشارك في ثورة ميسرة المذكور في اختيار واحة سجلماسة مجالا لنشر مذهب الخوارج الصفرية في أفق التمهيد لإعلان إمارة بها.

• واحات المغرب الإسلامي المجال الحيوي لمذهب الخوارج

آثرت القبائل الزناتية منذ منتصف القرن 2هـ/8م اعتناق مذهبي الخوارج الصفرية والإباضية لعدة عوامل ذاتية وخارجية، وسعت إلى تشكيل إمارات مستقلة، تحكمت الدواعي الأمنية والدعوية في اختيار مجالات إعلان قيامها، بعد أن تعثرت محاولات الخوارج الأولى في إيجاد موطئ قدم في إفريقية منذ عهد ولاة الخلافة الأموية في القيروان.

كما باءت محاولات الخوارج المتكررة بخيبة أمل في عهد العباسيين، ولاسيما حين استنجد أهلها بالخليفة المنصور فولى على مصر محمد بن الأشعث الخزاعي وكلفه بتطهير إفريقية من الخوارج،[6] لأنه كان كثير التوجس مما كانت تنطوي عليه صلاتهم بنظرائهم في المشرق، وما كان يشكله ذلك من خطر على مركز الخلافة،[7] وبالتالي تمكن ابن الأشعث من إلحاق الهزيمة بالإباضية وقتل زعيمهم أبي الخطاب في ربيع الأول سنة 144هـ/761م، ووجه برأسه إلى أبي جعفر ببغداد.[8] كما واصل ابن الأشعث ملاحقة الخوارج الإباضية بهدف استئصال شأفتهم،

(1) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 81؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 103-105.
(2) الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 81؛ ابن عذاري، البيان، ج. 1، 103؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 38.
(3) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 75-76.
(4) ابن عذاري، البيان، ج. 1، 104؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 38-39؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 123.
(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 103-104؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 39؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 123-124.
(6) النويري، **نهاية**، ج. 24، 39؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 127.
(7) انظر توجس المنصور من الشيعة كذلك. ابن الأثير، **الكامل**، ج. 5، 106-114.
(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 105.

فوجه سنة 145هـ/762م، قوات إلى زويلة وودان «فافتتحهما وقتل من بهما من الإباضية. وقتل عبد الله بن حبان الإباضي، وكان رأس أهل زويلة.»[1]

وبالتالي تم إبعاد الخوارج إلى المجالات الصحراوية فأنشأوا كيانات مستقلة، وهذا ينطبق أكثر على المذهب الخارجي الإباضي، ولاسيما بعدما انتهى إلى عبد الرحمان بن رستم (ت 171هـ/787م) انهزام أبي الخطاب ومقتله، ففضل مغادرة القيروان، «وولى هاربا إلى موضع تيهرت،»[2] ثم انتقل واختط مدينة تاهرت على بعد خمسة أميال من تيهرت التاريخية مستفيدا من مياه نهر مينة أحد روافد نهر شلف،[3] سعيا لمد إمارته الفتية بحاجاتها من المياه، وتوفر المراعي لقطعان المواشي، وبالتالي تأسست إمارة بني رستم الإباضية بتاهرت سنة 161هـ/777م.[4]

وإذا كانت معظم تشكيلات قبائل مكناسة قد فضلت الاستقرار بمواطنها الأصلية في حوض نهر ملوية، وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول حيث تصدر بيت بني أبي العافية الزعامة في مكناسة،[5] فإن بعض مكونات قبيلة مكناسة المذكورة، اقتنعوا بالرحيل إلى مجال الواحات الصحراوية «وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه بسجلماسة إلى مصبه في البحر.»[6] لا لحصانة سجلماسة وبعدها عن مراصد المذاهب المناوئة فرارا بمذهبها الخارجي من المضايقات والإكراه فحسب، بل باعتبار رمزية اتجاه القبلة الدال على الصلاح والاستقامة، ولهذا «اختص إباضية أهل المغرب بأهل القبلة ليميزوا بها أنفسهم عن أهل السنة،»[7] ولذلك اهتم بها الملثمون وأخضعوا بلاد القبلة إلى سلطانهم وهي «تمتد من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان.»[8] ولذلك كان تجار سجلماسة يكسبون عائدات جمة من

---

(1) المصدر نفسه، ج. 1، 106.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 105؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 40؛ سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي** (الإسكندرية: منشورات منشأة المعارف، 1979)، ج. 2، 295-296-297.

(3) قال الرقيق: «وادي شلف، وهو نهر في أرض البربر على ساحل من تيهرت.» الرقيق القيرواني، **تاريخ**، 67.

(4) «وأما مدينة تاهرت، فأسسها عبد الرحمان بن رستم بن بهرام... ونزل الإباضية بموضع تاهرت، وهي غيضة بين ثلاثة أنهار، فبنوا مسجدا من أربع بلاطات، واختط الناس مساكنهم، وذلك في سنة إحدى وستين ومائة.» ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 207.

(5) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج. 6 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط. 1، 1413هـ/1992م)، 154-158.

(6) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 154.

(7) حسن حافظي علوي، **واحات بلاد المغرب من القرن 4هـ/10م إلى القرن8هـ/14م**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ(مرقونة) (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، موسم 1424-1425هـ/2004-2005م)، القسم 1، 62.

(8) علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972)، 157.

«تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان، وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة.»[1] وبالتالي لاحظ ابن حوقل أن تجارها مياسير فهم معروفون «بكثرة أسفارهم وطول تغربهم عن ديارهم.»[2]

ويفهم مما ورد عند البكري، أن أبا القاسم سمكو (155-168هـ/771-784م) أحد أفراد قبيلة بني واسول المكناسية، كان أبوه سباقا إلى جمع كلمة الخوارج الصفرية،[3] وكان لابنه سمكو دورا فاعلا في إذكاء أوار ثورة ميسرة المطغري ضد جور ولاة بني أمية سنة 121 أو122هـ/738 أو 739م. وبالمثل كان زعيم برغواطة طريف[4] أحد رجال الدائرة الضيقة الذين اعتمد عليهم ميسرة في ثورته المذكورة؛ بحيث ثبت أن طريف المطغري القائم بدعوة الصفرية كان من قواد ميسرة الخفير.[5]

فلما تمت تصفية ميسرة من قبل أنصاره، ثم تبدد جمعهم بعد انهزام الصفرية في القيروان تفرق أتباعها، وعاد طريف إلى تامسنا ودعا إلى نفسه فبايعه البربر وقدموه على أنفسهم وأسس إمارة برغواطة سنة 123هـ/740م.[6] وبعد وفاته قدم البربر ابنه صالحا،[7] «كان «قد حضر مع أبيه حرب ميسرة الحقير ومغرور بن طالوت الصفريين، اللذين كانا رأس الصفرية.»[8]

والظاهر أنه كان بين الزعيمين طريف وسمكو تنسيقا معينا بعد تصفية ميسرة وبيعة خالد بن حميد الزناتي لأنهم اشتركوا في تلقي أصول مذهب الخوارج عن شيخهم عكرمة في

---

(1) ابن حوقل النصيبي، **كتاب صورة الأرض** (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1996)، 96.

(2) ثم قدم شهادة حية حين أبهر من حجم المعاملات وقيمتها مع بلاد السودان فقال: «ولقد رأيت بأودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست، وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار، وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا.» ابن حوقل، **صورة**، 96.

(3) عبد الله بن عبد العزيز البكري، **كتاب المسالك والممالك**، تقديم وتحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج. 2 (تونس: الدار العربية للكتاب-دار الغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، 1992)، 837.

(4) أورد ابن عذاري أن طريف من ولد شمعون بن إسحاق، وإليه تنسب جزيرة طريف. ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 87 و238. وهذا يدل على أنه شارك مع طارق بن زياد في فتح الأندلس.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 87؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 245؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 114.

(6) ذكر مؤلف مجهول أن صالح بن طريف هو من تولى أمر زناتة سنة 123هـ/740م. مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 197؛ بتزامن مع إعلان بني صالح قيام إمارتهم السنية في نكور سنة 123ه/740م. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، القسم 3، 172. غير أن ابن عذاري يؤكد أن ابتداء ظهور برغواطة كان سنة 124هـ/741م. ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 87.

(7) «وذكروا أن صالح بن طريف استوزره ميسرة الحقير.» ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 181.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 87 و242؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 245؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 114.

القيروان.[1] فإذا كان طريف بعد عودته قد استغل نضج شروط إعلان إمارة الخوارج الصفرية بتامسنا،[2] فإن سمكو وإن عاد إلى سجلماسة كمحضن واحي خام، في الفترة نفسها فقد اهتم بتأهيل السكان من خلال نشر مبادئ دعوة الخوارج الصفرية، فاستجاب لدعوته المكناسيين من عصبيته وعرف مذهبه صحوة من خلال التعبئة التي كان يقوم بها والده مصلان في التمهيد للأمر وذلك بلم شعث الصفرية.[3]

ولما نزل عيسى بن يزيد الأسود بسجلماسة سنة 138هـ/755م وجد بها «قبائل ذات عدد من زناتة الصفرية، فقدموه على أنفسهم وملكوه على بلادهم.»[4] وذلك بدعم من بطن مكناسة في مواطن سجلماسة التي صارت فيها الرئاسة في بني واسول، وبالتالي زكاه مصلان بن أبي يزول والد أبي القاسم سمكو الذي بسط يده لبيعة عيسى بن يزيد؛ وحمل قومه على طاعته فبايعوه.[5]

وذهب أحد الدارسين إلى تعليل فوز عيسى بإمرة سجلماسة بالرغم من تفوق أبي القاسم سمكو في العلم وأسبقية الانتماء لمذهب الخوارج، وعزا ذلك إلى ثقل وزن عنصر السودان ورجحانه على سائر العناصر الصفرية لأن معظم قبائل مكناسة لم يكونوا قد انتقلوا بعد [بكثافة] من موطنهم إلا بعد اختطاط سجلماسة» سنة 140هـ/757م.[6]

وبالتالي تم إعلان قيام إمارة الخوارج الصفرية بسجلماسة سنة 140هـ/757م،[7] تحت إمرة «ملكها عيسى بن يزيد المكناسي الصفري.»[8] كما يوحي اختيارهم لهذا الموضع الصحراوي في سجلماسة نابع من صعوبة الوصول إليه «إذ يمتد خلال متاهات من القفار والرمال، ولذلك

---

(1) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 47-48.

(2) ومما يؤيد اعتبار الصحراء مجالا حيويا للخوارج، أكد الأستاذ حسن حافظي علوي أن «الصحراء تسمى عند بربر غدامس بتامسنا، وتامسنا هي البسيط من الأرض الذي يشبه راحة اليد، ولا يقال للبسيط تامسنا إلا إذا كان يطل على البحر.» حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 67.

(3) البكري، **المسالك**، ج. 2، 837. مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 201؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 154-155؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 125.

(4) البكري، **المسالك**، ج. 2، 837؛ مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 201؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 138؛ الناصري، **الاستقصا**، ج.1، 124.

(5) البكري، **المسالك**، ج. 2، 837؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 154-155؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 125.

(6) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 117.

(7) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 201؛ محمد بن عبد الله الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: مكتبة لبنان، ط. 2، 1984)، 305؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 139.

(8) وأضاف: «وكان عيسى صاحب ماشية ينتجع بها المراعي ببلاد القبلة، وكثيرا ما كان ينتجع أرض سجلماسة، فنزلها في سنة ثمان وثلاثين ومائة [755م].» ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 138؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 124.

فهو في حماية طبيعية أتاحت لبربر مكناسة أن يتخذوا من قصبة سجلماسة عاصمة لهم.»[1]

ومهما يكن فقد زهد سمكو في الإمارة لأن المرحلة كانت تقتضي الحفاظ على وحدة عصبية مكناسة، واستكمال هجرتها من مواطنها الأصلية، يضاف إلى ذلك علة الغموض في انتمائه لأنه «كان أباضيا صفريا.»[2] لكن حصل وأن سخط الصفرية «أميرهم عيسى ونقموا عليه كثيرا من أحواله.»[3] ولم تفصح المصادر عن أسباب نقمتهم عليه، باستثناء البكري الذي أشار إلى اتهام أبي الخطاب لعيسى بالسرقة وهو حاضر بين يديه في مجلسه الغاص بأصحابه الصفرية ، بقوله: «السودان كلهم سراق حتى هذا وأشار إلى عيسى.»[4]

وبعد إدانة عيسى بن يزيد بالسرقة في ظروف يلفها الغموض، سخطه اتباع أبي الخطاب «وشدوه كتافا ووضعوه على قنة جبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين[ومائة] [771م].»[5] ويرجح أحد الدارسين أن نكبة عيسى هندسها الإباضية في تاهرت ونفذها الصفرية بعزل إمامهم وقتله.[6] ولعل الدافع إلى الثورة على عيسى يجد تفسيره «في ازدياد قوة مكناسة بعد قدوم بطونها من مواطنها الأصلية إلى سجلماسة وتطلعها إلى الحكم والسلطة.»[7]

وبالتالي طويت مرحلة عيسى بن يزيد الملغزة، مما مهد الظروف لبيعة كبيرهم أبي القاسم سمكو المكناسي الزناتي؛ الذي نشط في نشر دعوة الخوارج بين جماعات السودان جنوبي الصحراء «وأخذت جموعهم تفد وتستقر في إقليم تافيلالت بصفة دائمة بعد اعتناقهم المذهب الصفري،»[8] وبالتالي قاموا بأمره اعتبارا لتقواه وزهده إلى أن هلك سنة 167هـ/783م.[9] فضلا عن كياسته في مداراة بني العباس من خلال إعلان ولائه لخلافتهم السنية حيث «خطب في

(1) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 113.

(2) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155.

(3) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 124.

(4) البكري، **المسالك**، ج. 2، 838.

(5) البكري، **المسالك**، ج. 2، 838؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 124. وذكر ابن الخطيب تفاصيل قتله لكنه جعلها سنة 167هـ/783م، موضحا أن أبا الخطاب الصفري ألب عليه أتباعه من الخوارج الصفرية واتهمه بالسرقة «ثم إن الصفرية غدروه سنة سبع وستين [ومائة]، فقبضوا عليه، وشدوه وثاقا، إلى أصل شجرة في أصل الجبل، بعد أن طلوه بالعسل وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل، وولوا بعده أبا الخطاب الصفري.» ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 139-140.

(6) المصدر نفسه.

(7) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 120.

(8) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 50.

(9) أورد البكري وفاته سنة 168هـ/784م. البكري، **المسالك**، ج. 2، 838؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 124. أدرج ابن الخطيب بيعة سمكو بعد أبي الخطاب الزناتي الصفري (ت 191هـ/806م)، المعروف بالدهاء. ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 140-141.

عمله للمنصور والمهدي،»[1] وجنب بذلك إمارته مواجهة غير متكافئة ولا مأمونة العواقب ردحا من الزمن إلى أن عصفت بالمدراريين ريح الاجتياح الشيعي العبيدي سنة 297هـ/909م.

بيد أن ظروف استدامة الأمن الذي تمتعت به الإمارة الصفرية أزيد من قرن ونصف من الزمن يعود إلى تظافر عدة عوامل، منها نجاعة قرار انتقال مكناسة من بؤر التماس حيث مواطنها الأصلية بحوض ملوية، وإسهامها في تعمير واحة سجلماسة، وذلك لما تتيحه من أنشطة زراعية معاشية مساعدة على الاستقرار ومكملة لنمط الانتجاع والظعن، وكذا باعتبار موقع سجلماسة الاستراتيجي كمركز وسط لملتقى المسالك التجارية الرابطة بين الحواضر العواصم بإمارات الغرب الإسلامي الشمالية، وبين الامتداد الواحي للعمق الصحراوي باتجاه بلاد السودان الغربي. يضاف إلى ذلك احتضان سجلماسة لخليط بشري متعايش من صنهاجيين وسودانيين ويهود وبربر؛ إلا أن التعبئة المذهبية كانت نشيطة في قبيل مكناسة، ولا غرو فقد كانوا «يدينون لأول الإسلام بدين الصفرية من الخوارج.»[2]

ولعل ما يدعم هذا التعدد الإثني الحاضر بقوة في عاصمة بني مدرار تهيئة الأمير اليسع أبو منصور (ت 208هـ/823م) لمدينة سجلماسة بهذا القصد بحيث كان متعصبا لـ «مذهب الخوارج الصفرية وقاتل عليه.»[3] ولعل الحاجة إلى تأمين مجال سلطته، أُثر عنه أنه «دوخ بلاد الصحراء وأخذ الخمس من معادن درعة،» وأظهر الصفرية.[4] ولدعم الاستقرار والحفاظ على موارد سجلماسة «اختط بها المصانع والقصور.»[5] وصيانة لوحدة مذهب الصفرية من الاختراق عمد إلى «هدم ما كان أبوه بناه من سور المدينة، وبناه بناء حسنا أحسن من الأول،»[6] احترازا في الغالب من زحف خصومه الأدارسة أو هجوم صنهاجة الصحراء.

ولتفادي المشاحنات أنزل كل قبيلة في حي خاص بها لا يضايقهم فيه غيرهم ضمانا للتوافق والتعايش، وزودها باثني عشر بابا.[7] كما أورد ابن الخطيب أخبار سور آخر غير الذي يحيط بالتجمع السكني المذكور، بناه أبو القاسم سمعون الزناتي الملقب بمدرار سنة

---

(1) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155.

(2) المصدر نفسه، ج. 6، 154.

(3) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 143. أورد ابن خلدون أنه «كان إباضيا صفريا، وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة.»ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155.

(4) البكري، **المسالك**، ج. 2، 838؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155.

(5) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155.

(6) البكري، **المسالك**، ج. 2، 838؛ مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 201؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 143؛ ابن خلدون، **العبر**، 6، 155؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 125.

(7) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 201؛ الحميري، **الروض**، 306.

199هـ/814م، إذ الغاية منه على ما يبدو بالإضافة إلى الدور الدفاعي، حرز محاصيل البساتين من الزوابع والعواصف الرملية المهددة للتربة بالتصحر.[1] وبالتالي غدت سجلماسة قبلة للخوارج الصفرية في بلاد المغرب بأسره هروبا من انتقام ولاة بني العباس من آل المهلب.[2]

هذا الاحتراز في دعم التوافق والتعايش سينتهي مع أواخر عهد اليسع أبي منصور المذكور، ذلك أن زمرة الخوارج الإباضية المقيمة بسجلماسة والتي كانت تخفي أنشطتها الدعوية تحت غطاء أعمال التجارة، أسهمت في إثارة النعرات المذهبية مع الخوارج الصفرية، وبالتالي اشتد الاستقطاب المذهبي لصالح الأقلية الإباضية من خلال «تجويز مبدأ التقية مما يؤكد جنوحهم إلى أسلوب الدعوة السرية،»[3] وذلك إبان أواخر حكم الأمير المنتصر المعروف اختصارا بمدرار (208-253هـ/823-867م) حيث تزايد عليه الضغط من الفريقين في إقرار ولاية العهد لأحد الأميرين: أحدهما ميمون بن أروى بنت عبد الرحمان بن رستم مدعوما من الأقلية الإباضية المذكورة التي كانت في تواصل تنظيمي مع أئمة الإباضية في تاهرت.[4] أما سواد الأغلبية من الخوارج الصفرية فكانت تزكي ميمون بن تقية الشهير بالأمير(ت263هـ/877م).[5]

وحسب ما يفهم من ابن الخطيب أن قتالا دار بين الأخوين مدة ثلاث سنوات، جعل الإباضية تفرض مرشحها بالقوة من خلال تنفيذ مؤامرة انقلاب أفضت إلى استبداد ابن الرستمية بالأمر وتغلبه على أبيه، غير أن سيرته ساءت في قومه فخلعوه وصار إلى درعة.[6] وبالتالي لم يتحقق التقارب بين الإباضيين والصفريين من خلال ما كان معولا عليه من مصاهرة بين بني رستم وبني مدرار، حيث أجهضت محاولة ابن أروى الإباضي لصالح ابن تقية الصفري، وبالتالي لم يتحقق التضامن الذي أشار إليه احد المستشرقين بينهما إلا في نطاق ضيق.[7]

ويبدو أن الصفرية كأغلبية أفرغت مؤامرة الانقلاب الإباضي من مضمونه، فخلعوا ابن الرستمية وبايعوا ابن تقية بالإمارة بعدما تبينت مساندة أبيه لابن الرستمية «وكانت لأبيهما صاغية إلى ابن أروى،»[8] وفشلت بالنهاية خطة الأقلية في توجيه ولاء السجلماسيين نحو

(1) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم، 3، 141.

(2) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 119.

(3) المرجع نفسه، 46.

(4) ابن خلدون، **العبر**، 6، 155؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 125.

(5) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم3، 144؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155-156.

(6) البكري، **المسالك**، ج. 2، 838-839، ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 143؛ ابن خلدون، العبر، ج. 6، 155؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 125.

(7) Alfred Bel, *La religion musulmane en Berbérie : esquisse d'histoire et de sociologie religieuses,* T.1 (Paris : Paul Geuthner, 1938), 168.

(8) البكري، **المسالك**، ج. 2، 839؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 143؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 155.

طاعة إمام تاهرت. وربما تحقق مسعى الإباضيين مع ابنه الأمير محمد بن ميمون بن تقية (ت 270هـ/883م) الذي وصفته بعض المصادر بأنه كان إباضي المذهب، وفي فترة حكمه توفي أبوه مدرار مخلوعا.[1]

• الاكتساح الشيعي لإفريقية والقضاء على دولة الأغالبة

اكتسى التدافع بين أنظمة الخلافة الثلاث، صبغة تدافع مذهبي في الظاهر بين خلافتين سنيتين وإمامة شيعية قادها العبيديون بإفريقية من جهة، وبين مذاهب الخوارج بأطيافها من جهة أخرى. وبالرغم من التقارب السني للمذهبين الحنفي لبغداد والمالكي لقرطبة، فقد فرقت بينهما المصالح الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية بمجال المغرب الإسلامي، وغدا كل منهما يذود عن مصالحه من خلال دعم وكلائه وتحريض عملائه. وبالتالي كان الأغالبة أداة في يد العباسيين، في الوقت الذي كان فيه الرستميون حلفاء أمويي قرطبة، والملاحظ أن العلاقات الاقتصادية كانت تسكن الخلافات المذهبية بينهما.

أخذ وضع الأغالبة في التدهور منذ النصف الثاني من القرن 3هـ/9م، حيث أرقت ثورات الخوارج الإباضية الأمير أبا إسحاق إبراهيم بن أحمد (261-289هـ/874-901م)، وتمكن بالنهاية من هزيمتهم في وقعة نفوسة سنة 283هـ/896م.[2]

وبموازاة ذلك وجه الشيعة الداعية أبا عبد الله الصنعاني إلى المغرب لدعوة أهله إلى التدين بحب أهل البيت، فكان داعية ذا فهم ومعرفة، فتكلف حضور موسم الحج فرأى قوما من أهل المغرب من قبيل كتامة ملتفين حول شيخهم، فلصق بهم وسألهم عن مذهبهم وبلادهم، فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى الإباضية النكارة، فرافقهم إلى كتامة بدعوى تعليم أبنائهم.[3] مستغلا حصانة تضاريس منطقتهم المنيعة بين جبال الأوراس والبحر المتوسط، وكثافة سوادها بين قبائل صنهاجة، وهي شروط مناسبة لانتعاش سرية نشاطه الدعوي.

وفي الوقت الذي كان فيه أبو عبد الله الصنعاني الداعي يؤطر قبائل كتامة ويعدها لنحلة التشيع، أنس من بعض أعيانها حب أهل البيت، فأسر لمن وثق به منهم بأن خروجه معهم بنية تعليم النشء؛ كان تمويها لحماية الدعوة من عيون أعدائها المتربصين بأئمتها. وبالتالي أعرب لشيخ كتامة عن مراده بقوله: أنا «لست معلم الصبيان، إنما نحن أنصار أهل البيت، وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كتامة إنكم أنصارنا، والمقيمون لدولتنا...وإنه سيكون إمام أنتم أنصاره.»[4]

---

(1) البكري، **المسالك**، ج. 2، 839؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 173.

(3) المصدر نفسه، ج. 1، 168-169.

(4) المصدر نفسه، ج. 1،171.

وعليه فإن إضفاء صبغة الأنصار على دور أهل كتامة في نصرة إمام يترقب ظهوره في المغرب من أهل البيت، يحاكي إلى حد ما دور الأوس والخزرج في نصرة النبي الكريم واحتضان دعوته في المدينة بعد إخراجه من مكة. فاتخذ منهم الداعي دعامة مادية لتحقيق غاية ما يصبو إليه من خلال مدخلي اقتران النصرة بالطاعة، ويكون بفطنته ودهائه قد وأد عوامل الخلاف والتمرد بين أتباعه الكتاميين، وكان يتعهدهم بين الفينة والأخرى بالورع ونكران الذات لتجاوز العقبات في سبيل نصرة عبيد الله المهدي بمخاطبتهم بقوله: «أنا لا أدعوكم لنفسي، وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت...وانا متصرف بين يديه إذا ظهر.»[1]

مقابل ذلك كان الأمير أبو إسحاق إبراهيم الأغلبي في غفلة مما يجري بقبائل صنهاجة لانشغاله في سفك دماء أهل إفريقية،[2] مع العلم أنه كان في أول عهده مشكورا وله «سيرة حسنة، وأفعال محمودة، ثم غلب عليه خلط سوداوي، فتغير وساءت أخلاقه،»[3] فشكاه أهل تونس إلى الخليفة المعتضد بالله العباسي(ت ربيع الآخر 289هـ/أبريل 902م)، وحمّلوا الخليفة جريرة تواطئه مع إبراهيم بن أحمد بقولهم: «أهدى إليك نساءنا وبناتنا،»[4] فاشتد غضب المعتضد، وكتب إليه «يُعنفه على جَوره وسوء فعله بأهل تونس.»[5] ودعاه إلى بغداد لمحاسبته، فلم يستجب إبراهيم لدعوته، فأمره الخليفة «أن يعتزل عن إفريقية.»[6]

ولما تزايد خطر أبي عبد الله الداعي[7] بكتامة، أظهر إبراهيم بن أحمد التوبة[8] سنة 289هـ/901م، وسماها سنة العدل، وفيها «رد المظالم، وأسقط القبالات، وأخذ العشر طعاما، وترك لأهل الضياع خراج سنة.»[9] وبعد عودة ولده أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد

---

(1) المصدر نفسه، 1، 173.

(2) النويري، **نهاية**، ج. 24، 76-77-78.

(3) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 32-33؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 177.

(4) النويري، **نهاية**، ج. 24، 73.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 174.

(6) النويري، **نهاية**، ج. 24، 73.

(7) النويري، **نهاية**، ج. 24، 73. التقى به بعض أعيان كتامة في الحجاز وهم بصدد أداء فريضة الحج، ثم استقدموه بعد أن سألهم عن الوضع الديني في قبيلتهم والأحوال السياسية في محيطهم فأبدى رغبته في مرافقتهم إلى منطقة كتامة فدخلها سنة 288هـ/900م، فأخذ يبث دعوة المذهب الإسماعيلي بينهم حتى شكل قاعدة صلبة لدعوته من الكتاميين، ودبر عبيد الله المهدي مؤامرة للتخلص من الكوفي لما كان له من نفوذ على أتباعه، كما قضى على داعميه من أعيان كتامة، واحتكر المهدي جميع السلط الروحية والسياسية في يده، واستعاض عن الاستقرار في رقادة توجسا من كتامة، وأسس مدينة المهدية سنة 303هـ/915م وبالغ في تحصينها واتخذها دار قراره. ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 46-47.

(8) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 34؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 73.

(9) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 176؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 34؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 73.

من صقلية؛ تخلى له والده عن الملك، وسلم له الأمر.[1] ولهذا كتب أبو العباس عبد الله سنة 290هـ/902م إلى عماله ليأخذوا له البيعة.[2]

في ظل هذا الوضع كانت قوة الشيعة تتزايد، وصورة الأمير أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد (289-290هـ/901-902م) تتهاوى في أعين العامة لمداراته للعباسيين بحيث «كان يظهر القول بخلق القرآن فكرهه العامة،»[3] وزهد في الحياة وتقاعس عن القيام بأعباء الملك «وأظهر التقشف.»[4] فاستغل الشيعة حادثة اغتياله سنة 290هـ/902م من قبل «فتيين كان يثق بهما»[5] لبسط نفوذهم على كتامة.

ولما استقام الأمر لابنه زيادة الله (290-296هـ/902-908م)آخر أمراء الأغالبة، تقرب من العامة معلنا براءته من مقولة خلق القرآن و«عزل القاضي الصديني لرأيه بخلق القرآن،»[6] ولرأب صدع الجبهة الداخلية وجه كتابا إلى القيروانيين يعلن فيه تطهير القضاء من دعاة بدعة خلق القرآن «إني قد عزلت عنكم الجافي الجلف، المبتدع المتعسف،»[7] وعين على قضاء القيروان «حماس بن مروان بن سماك الهمداني، وكان عالما بمذهب مالك، فعدل في أحكامه، ولم يكن يهيب أحدا في ولايته.»[8]

وبموازاة ذلك كان عبد الله الشيعي يزحف بجحافل كتامة على مدن إفريقية سنة 291هـ/903م، مقابل ذلك عمد زيادة الله إلى جمع علماء أهل السنة في مدينة تونس لتوحيد الجبهتين الرسمية والشعبية «مستظهرا بهم على أبي عبد الله الشيعي، فتفاوضوا في أمره.»[9]

---

(1) النويري، **نهاية**، ج. 24، 287-274؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 176-178؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 34؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 74.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 178.

(3) النويري، **نهاية**، ج. 24، 78.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 178؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 36؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 78؛ سعد زغلول، **تاريخ**، ج. 2، 158.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 178؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 37؛ سعد زغلول، **تاريخ**، ج. 2، 159.

(6) النويري، **نهاية** ، ج. 24، 79.

(7) المصدر نفسه.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 180؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 79.

(9) وكان يمثل زيادة الله في الاجتماع وزيره عبد الله بن الصائغ الذي قال لهم: «إن الأمير يقول لكم: هذا الصنعاني الخارج علينا مع كتامة يلعن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ولعن من يلعنهما، ويزعم أن أصحاب النبي صلى الله عليهم ارتدوا بعده -لعن الله من استنفقهم-، ويسمي أصحابه: المؤمنين، ومن يخالفه في مذهبه، الكافرين.» ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 181؛ سعد زغلول، **تاريخ**، ج. 2، 165.

وبالتالي جرت حرب ضروس بين جند الأغالبة وحشد كتامة سنة 292هـ/904م بقيادة أبي عبد الله الداعي «فاقتتل الفريقان، فكانت بينهما ملحمة عظيمة، ثم انهزم [الأغالبة]، واشتغلت كتامة بالغنيمة وضروب الأمتعة. وهي أول غنيمة أصابها الشيعي وأصحابه.»[1]

وبالتالي بسط الداعي سيطرته على مدن سطيف وبلزمة وعاصمة الزاب طبنة،[2] ودخلها في ذي الحجة سنة 293هـ/أكتوبر 905م، وأضاف ابن عذاري ما يفيد دهاء الداعي في توظيف موقف الشيعة من إكراه الأغالبة للعامة على دفع الضرائب، أنه جيء إليه بمال الجباية وكان بحوزة عامل زيادة الله على المدينتين المذكورتين، فسأله الداعي من أين جمعت هذا المال؟ فقال له: من العشر. فأنكر ذلك عليه، في إشارة إلى ظلم الرعية، وفي سياق إثبات شعار العدل الذي رفعه الشيعة أمر الداعي برد المال وتوزيعه على أصحابه، وأعلمهم أنهم أمناء على ما تنتجه أرضهم، فسر بذلك أهل طبنة، وذاع صيت الداعي في أنحاء البلاد، فأحبه الناس وداخلوه، وبلغ ذلك الأمير زيادة الله فاغتم غما شديدا وأمر بلعنة الشيعي على المنابر.[3]

بيد أن طوق الخناق أخذ يضيق على زيادة الله من خلال استيلاء الداعي على المزيد من المناطق، حيث وصلت خيله إلى قسطيلية، وهزم عامل توزر، وأخذ الأربس عنوة، وتوجه نحو باغاية سنة 296هـ/908م.[4] ثم أشار الوزير ابن الصائغ على أميره زيادة الله بالبقاء في رقادة لأن الشيعي لا يجسر على مهاجمته، فكان ذلك سببا لاتهام الأمير لابن الصائغ بالخيانة فقال له: «هذا يصدق ما قيل عنك، إنك كاتبت الشيعي وأردت أن تمكنه مني.»[5]

وعلم الأمير زيادة الله أن حياته غير مأمونة، في ظل زحف الشيعة إلى دار ملكه رقادة،[6] «فأخذ في شد الأحمال بما خف من الجوهر والمال،»[7] ولاذ بالفرار إلى مصر في جمادى الآخرة سنة 296هـ/مارس 909م.[8] ودخل العامة قصر مدينة رقادة «وأخذوا من أموال بني الأغلب وآنية الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف،»[9] واغتنمت العامة فرصة هروب زيادة الله

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 181.

(2) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 39-40؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 80؛ سعد زغلول، **تاريخ**، ج. 2، 171-172.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 182.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 183؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 39-40-41-42؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 43؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 80؛ سعد زغلول، **تاريخ**، ج. 2، 178-179-180.

(5) النويري، **نهاية**، ج. 24، 80.

(6) المصدر نفسه.

(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 183؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 43؛ ابن الخطيب، **نهاية**، ج. 24، 80.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 183.

(9) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 184؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 43. مدينة رقادة بناها الأمير الأغلبي أبو إسحاق إبراهيم الثاني سنة 263هـ/877م في ضواحي مدينة القيروان وجعلها قاعدة ملكه الجديدة. ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 117؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 44؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 69.

وتأخر وصول الشيعي إلى رقادة مدة ستة أشهر «حتى صاروا إلى البحث عن المطامير، وانتزاع حديد الأبواب وحمل الأسِرَّة ونقل الماعون.»[1]

وأما وزيره ابن الصائغ فقد توجه على متن مركب إلى صقلية طلبا للنجاة من انتقام زيادة الله منه لما رماه بالتخابر مع أبي عبد الله الشيعي.[2] غير أن الرياح ساقت مركبه باتجاه طرابلس فوقع بين يدي زيادة الله،[3] فأوغرت حاشيته صدره على ابن الصائغ وقالوا له: «هذا الذي أخرجك من ملكك، وعمل في ذهاب دولتك، وكاتب الشيعي عليك.»[4] فنقم عليه زيادة الله وأمر بضرب عنقه فذهبت حياته هدرا للوشايات والدسائس بدليل إنصاف الداعي له بقوله: «والله ما كاتبني قط.»[5]

وبالتالي أقبل أبو عبد الله الداعي بشيعته إلى رقادة سنة 296هـ/908م،[6] وخرج إليه أهل القيروان «ووعدهم بالإحسان والعدل.»[7] وبالتالي أسدل الستار على دولة الأغالبة،[8] وبزغ عهد الشيعة المدعويين بالعبيديين.[9]

• لجوء المهدي إلى سجلماسة وبداية متاعب الخوارج

كان إمام الشيعة عبيد الله المهدي قد لجا إلى الصحراء هاربا من مطاردة جواسيس بني العباس ودخوله متنكرا في صفة تاجر[10] للتواري عن الأنظار بمجال الواحات الجنوبية البعيد عن عيون مطارديه، «وظهر بسجلماسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين[908م]، وسُلِّم عليه بالإمامة،»[11] وهذا دليل على الترتيب المسبق لشيعته بالمنطقة، من خلال تأمين رحلته إلى سجلماسة مستغلا خاصية التعدد الإثني التي امتازت به حسب موقعها في طريق عبور القوافل التجارية.

---

(1) النويري، **نهاية**، ج. 24، 81.
(2) المصدر نفسه، ج. 24، 81-82
(3) سعد زغلول، **تاريخ**، 2، 182-183.
(4) النويري، **نهاية**، ج. 24، 82.
(5) المصدر نفسه، ج. 24، 81-83.
(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 184؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 45؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 43.
(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 184.
(8) النويري، **نهاية**، ج. 24، 82-84.
(9) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 46؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 82-84.
(10) قال ابن عذاري: «وكان وصوله إلى مصر في زي التجار سنة تسع وثمانين ومائتين[901م].» ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 216؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4،41؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 125.
(11) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 216؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 42.

لما تعززت دعوة أبي عبد الله الداعي الشيعي بقبيل كتامة الصنهاجيين وضع نصب عينيه اكتساح إفريقية الأغلبية، «وبشرهم بأن المهدي قرب ظهوره،»[1] مقابل ذلك كانت دولة الأغالبة تعرف تدهورا متزايدا على جميع الأصعدة، حينها لم يتردد الأمير الأغلبي زيادة الله (290-296هـ/902-908م) في إخبار نظيره المدراري الأمير اليسع بن المنتصر في مراسلة بهوية المهدي المتنكر[2] بمجال إمارة سجلماسة، فبادر اليسع إلى حبس المهدي في إطار إقامة جبرية بمداومة حراسه في بيت أخته مريم بنت مدرار، كما حبس ابنه أبا القاسم كذلك.[3]

فما وجه المصلحة في إسداء الأغالبة للخوارج الصفرية نبأ هذا الصيد الثمين؟ من المعلوم أن الأغالبة بحكم مذهبهم الحنفي قد أعلنوا حربا ضروسا على الخوارج الإباضية في تاهرت، وعملا بمقولة عدو عدوي صديقي، فإن وجه المصلحة في التخابر المذكور يتمثل في إبعاد الخطر الخارجي عن نفوذ الأغالبة السنة، حتى يتسنى لهم التفرغ لإباضية تاهرت[4] من جهة، وإرباك أبي عبد الله الداعي الذي يقود الزحف الكتامي على حواضر إفريقية، خصوصا إذا علمنا أن الغنائم التي حصل عليها في أول مواجهة مع الأغالبة، شكلت بشارة زفها الداعي إلى عبيد الله المهدي «وهو مسجون بسجلماسة يعلمه بالفتح، ووجه إليه بمال كثير، مع رجال من كتامة، أخفوا أنفسهم حتى وصلوا إليه وعرفوه بالخبر.»[5] فأخفى عبيد الله ذلك «ولم يبده إلا لمن وثق بكتمانه عليه.»[6]

وبالتالي كانت غاية زيادة الله من كشف هوية المهدي إلى خوارج سجلماسة الصفرية زرع فتيل الصراع بينهم وبين طلائع الشيعة العبيديين بما يفضي إلى إضعاف الجانبين معا وتخفيف ضغط كتامة المتزايد على آخر أمير أغلبي.

وعليه فقد شكل قرار اليسع بحبس عبيد الله المهدي بسبق إصرار عن طريق التخابر مع الأمير زيادة الله تنفيذا لما ورد في «كتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان، وابن مدرار

(1) ابن خلدون، العبر، ج. 4، 41.

(2) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 204؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 37.

(3) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 204؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 187؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 126.

(4) «كان للهزائم التي ألحقها إبراهيم بن الأغلب بالخوارج في وقعة مانوا سنة 383هـ/993م بالغ الأثر في إضعاف جانب الإباضية ببلاد الجريد.» حسن حافظي علوي، «مراجعات حول الصراع السني الإباضي ببلاد المغرب،» ضمن كتاب **الصراع المذهبي ببلاد المغرب**، تنسيق حسن حافظي علوي (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: 157، 1429هـ/2008م)، 86. وأورد الحميري أن الذي كشف هوية المهدي هو يهودي. الحميري، **الروض**، 306؛ سعد زغلول، **تاريخ**، ج. 2، 393.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 182؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 42.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 182.

بسجلماسة، يغريهم بالقبض عليه لما سار إلى المغرب،»[1] وعليه فإن اعتقال المهدي بسجلماسة مثل بداية متاعب إمارة بني مدرار الصفرية، خصوصا إذا علمنا عدم تساهل شيعته مع من كان سببا في اعتقال أو امتحان إمامهم.[2]

خرج الداعي من إفريقية في منتصف رمضان سنة 296هـ/7 يونيو 909م، ميمما وجهه شطر سجلماسة طلبا لتخليص المهدي من قبضة الصفريين، وفي طريقه إليها اقتحم إمارة بني رستم ودخل تيهرت وأثخن في قتل الإباضية، وأجهز على دولتهم بعدما عمرت 130 سنة، وولى عليها عاملا من قبله.[3]

وفي السابع من ذي الحجة/ 27 غشت من السنة المذكورة، زحف أبو عبد الله الشيعي على سجلماسة،[4] وذلك بعدما ناهز بها حكم الأمير اليسع بن المنتصر بن أبي القاسم ثلاثة عقود انطلاقا من تاريخ ولايته سنة 270هـ/883م. وتأكد حينها اليسع بأن لا قبل له بمقاومة مقاتليه من كتامة الصنهاجيين، فشغلهم الصفرية بالمناوشات، ولاذ اليسع بالفرار في جنح الظلام مع جماعة من بني عمه.[5]

وبموازاة ذلك تمكن أبو عبد الله الداعي من تحرير إمامه المهدي (297-322هـ/909-933م) وابنه أبي القاسم من قبضة خوارج سجلماسة،[6] وأطلق أيدي الكتاميين من شيعته في انتهاب سجلماسة ثم أحرقوها.[7]

وفي مستهل سنة 297هـ/909م غدر قوم من البربر يعرفون ببني خالد/مطغرة بالأمير اليسع بن مدرار وسلموه إلى أبي عبد الله الداعي،[8] وذلك نكاية فيه لأنه « كان استكثر من الجيوش، وعزم على غزو مطغرة، فشغله عن ذلك مداهمة من أبي عبد الله الشيعي.»[9]

---

(1) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 204؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 37؛ الحميري، **الروض**، 306؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 125.

(2) فلما خلص الداعي إمامه من قبضة الصفرية «قال لأهل سجلماسة: لا يحل لكم أن تستوطنوا بلدا امتحن فيه الإمام، ففزعوا منه فخرجوا، فلما خرجوا أمر بسلبهم، ففتشوا كلهم رجالا ونساء وأخذ أموالهم وصرفهم، وقيل: إنه تحصل له من التبر والحلي وقر عشرين جملا أدخلها رقادة، وبايع بها لعبيد الله، وأدخله القيروان وبنى له المهدية.» الحميري، **الروض**، 307.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 186ـ208؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 127.

(4) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 204؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 186.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 187؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 44.

(6) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 202؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156؛ الحميري، **الروض**، 306-307.

(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 187؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 49.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 187.

(9) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم3، 145.

o الخوارج الصفرية ومقاومة النفوذ الشيعي

بعد تغلب عبد الله الداعي على سجلماسة، عزم على التوجه إلى إفريقية لاستكمال ترتيبات بيعة المهدي، وعهد بولاية سجلماسة إلى إبراهيم بن غالب المزاتي، وترك معه خمسمائة فارس من كتامة.[1] ثم انطلق راجعا إلى القيروان مستصحبا معه الأمير اليسع وأهله مكبلين، وبينما هو في طريقه ورده خبران، الأول يتعلق بنبأ المجزرة التي ارتكبها أخوه ونائبه أبو العباس المخطوم في القيروان.[2]

ويتعلق الخبر الثاني بتغلب محمد بن خزر الزناتي على تيهرت، فأمر الداعي بقتل الأمير اليسع.[3] وحشد قواته قاصدا منازلة ابن خزر «ففر أمامه حتى دخل في الرمال.»[4] وبالتالي شق عليه تعقبه وتبديد جهود قواته في الصحراء.

وفي خضم الجبهات المفتوحة ضد الشيعة، دبرت المقاومة المدرارية الصفرية مؤامرة محكمة انتهت باغتيال والي عبيد الله المهدي إبراهيم بن غالب المزاتي بعد انصراف عبيد الله الشيعي بخمسين يوما من سجلماسة، وتصفية بطانته وحراسه من الكتاميين في ربيع الأول من سنة 297هـ/نونبر 909م، وبايعوا الفتح بن ميمون.[5]

وللحفاظ على نفوذهم بجبهة واحة سجلماسة دعم العبيديون تولية الفتح واسول بن ميمون[6] (298-300هـ/910-912م) من بني واسول المكناسيين في ربيع الأول 298هـ/نونبر 910م، «واستقام أمره تحت تقية من مطالبة الشيعي.»[7] وهي السنة 298هـ/910م التي قاد فيها الخوارج الإباضية من بني عمومتهم الزناتيين ثورات على الشيعة العبيديين بكل من جبهتي هوارة وزناتة المنتفضتين بطرابلس. ولواتة الثائرة بالمغرب الأدنى، فاثخن فيهم الشيعة قتلا وسبيا، وأحرق أبو عبد الله الداعي بعض المدن بالنار.[8]

---

(1) البكري، **المسالك**، ج. 2، 839؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 44؛ ابن عذاري، **البيان**، 1، 187-215؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 145.

(2) يتعلق الأمر بالمجزرة التي ارتكبها أبو العباس المخطوم في حق أهل السنة بالقيروان. ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 187.

(3) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 145.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 187.

(5) البكري، **المسالك**، ج. 2، 839. يجعل ابن عذاري ولاية المزاتي على سجلماسة سنة 298هـ/910م. ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 187-215؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 145-146؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 49.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 187؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 126. قال ابن الخطيب: «الفتح بن الأمير مدرار المسمى بالرسول» لعله واسول. ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 145.

(7) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 146؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 55.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 190-189.

وبعدما حرر العبيديون ما اعتبروه مجالا حيويا لمذهبهم، عمدوا إلى حشد قواتهم وتنظيم حملة لتطهير المقاومة الزناتية الإباضية التي شكلت بثوراتها وعدم انقيادها حجر عثرة في طريق فرض مشروع التشيع بالقوة والإكراه، فالتقى الفريقان في معركة فلك مديك، فاستبسل الزناتيون في المقاومة والقتال؛ لكن وبسبب تفاوت موازين القوى انتصر العبيديون مما أسفر عن خسائر في أرواح خصومهم الزناتيين.[1]

ولما استقام الوضع للمهدي أراد الداعي أن يستأثر بالسلطة دونه وبدأ يشكك اتباعه من الكتاميين في مهدويته بعدما كان «يزعم أنه الإمام من آل علي.»[2] وبالتالي دبر أبو عبد الله الشيعي بمعية أخيه المخطوم مؤامرة للاستبداد عليه.[3] فلما أحيط المهدي علما بتفاصيل المؤامرة استدرجهما لمشاركته طعامه وأمر بقتلهما، فلما هم الموكل بقتلهما قال له الداعي: «لا تفعل، فقال: الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك، ثم أجهز عليهما؛»[4] قعصا بالرماح في منتصف جمادى الأولى 298هـ/910م.[5]

كما تطلع العبيديون إلى إخماد عصيان إباضية تاهرت الذين نجحوا في الثورة على دواس، عامل المهدي عليهم، الذي نجا من القتل بفراره إلى تيهرت القديمة، وتم تنصيب محمد بن خزر من أهلها،[6] في تحد سافر لنحلة الفاطميين، غير أن كسب العبيديين للمعارك ضد زناتة بطرابلس والمغرب الأدنى، قوى من العزائم المعنوية لقواتهم في خوض معركة ضروس مدة ثلاثة أيام كانت كافية لبسط نفوذهم من جديد على تاهرت، لأربع خلون من صفر 299هـ/1أكتوبر911م «فقتلوا الرجال، وسبوا النساء والذرية، وانتهبوا الأموال، وحرقوا المدينة بالنار.»[7] وولى عبيد الله مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي على مدينة تاهرت والمغرب الأوسط.[8] وبالتالي استطاعوا من خلال موقع تاهرت إنعاش الوساطة التجارية بين جنوب الواحات وشمالها.

---

(1) حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 104.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 186.

(3) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 44-45؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 84.

(4) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 205؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 45؛ الحميري، **الروض**، 307.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 190؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 51. حين كشف المهدي تعاقد الداعي مع أصحابه الكتاميين في أواخر ذي الحجة 297هـ/909م على خلعه، حين جمع وجوه كتامة وتكلم معهم في أمر خلع المهدي، وقال لهم: «إن أفعاله قبيحة ليست تشبه أفعال المهدي الذي كنت أدعو إليه، وأخشى أن أكون قد غلطت فيه، وعرض لي ما عرض لإبراهيم الخليل عليه السلام إذ رأى كوكبا فقال: هذا ربي، فيجب علي وعليكم امتحانه وكشفه عن علامات المهدي.» ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 189؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 45.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 191.

(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 191؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 154.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 191.

ومن ثم ندرك أن المهدي وجه عناية قائده مصالة بن حبوس بمغادرة نكور لأنها لا تشكل خطورة عليهم، ووجهه إلى إمارة فاس، ثم دخل ابن حبوس سجلماسة ونهب جيشه موارد أهلها وأموالهم، وقتل أحمد بن ميمون بن مدرار في محرم 309هـ/ يونيو 921م،[1] وبعث برأسه إلى المهدي.[2] وقبيل قفوله إلى إفريقية، اقتضت سياسة ابن حبوس «أن يولي على سجلماسة رجلا من بني مدرار ليأمن شغبهم فولى عليها المعتز بن محمد[بن ساور بن مدرار]،»[3] الذي استمرت ولايته أكثر من عقدين من الزمن أقام فيها «ملكا بسجلماسة وما إليها من البلاد القبلية داعيا للشيعة إلى أن توفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة[933م].[4] أما مصالة فقد نشبت بينه وبين ابن خزر حرب ضروس انتهت بمقتل ابن حبوس وانهزام أصحابه في شعبان سنة 312هـ/نونبر 924م.[5]

غير أن حفيده حميد بن يصليتن بن حبوس صاحب تاهرت والمغرب غير ولاءه «فانحرف عن الشيعة، ودعا لعبد الرحمان الناصر. واجتمع مع بني خزر أمراء جراوة على ولاية المروانية.»[6]

ومن هنا فإن إصرار العبيديين على إخضاع سجلماسة لنفوذهم يخفي وراءه القيمة التجارية للمدينة الصحراوية، سعيا منهم لتوسيع نفوذهم الاقتصادي من خلال السيطرة على المحاور الرئيسة بين سجلماسة وعمقها الجنوبي وبين البحر المتوسط شمالا، ومن ثم فإن الإلحاح الشيعي لضم سجلماسة سيفتر من خلال تجدد مقاومة المدراريين ومغادرة العبيديين لإفريقية نحو مصر.

o مناهضة الإباضية للعبيديين

ولما توفي عبيد الله المهدي في ربيع سنة 322هـ/934م، لأربع وعشرين سنة من خلافته، عظم حزن ابنه أبي القاسم محمد الملقب بالقائم بأمر الله على أبيه،[7] و»أظهر مذهبه، وأمر بسب الغار والعباء، وتكذيب كتاب الله تعالى، فمن تكلم عذب وقتل، واشتد الأمر على المسلمين.»[8]

---

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 201-216؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 146؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 47؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 126.

(2) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 146.

(3) المصدر نفسه.

(4) - البكري، **المسالك**، ج. 2، 839؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 216؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 146-147.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 203-209؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 47.

(6) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 154.

(7) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 48؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 84؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 189؛ الحميري، **الروض**، 307.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 228. وذكر الحميري الخصائص المذهبية التي دعا إليها بقوله: «فأظهر مذهب أهل

وإذا كانت ثورة أبي يزيد النكاري منذ بداياتها الأولى سنة 316هـ/928م،[1] قد أربكت حسابات الفاطميين من خلال النتائج التي حققتها بإفريقية، فإن بأسها يعود في بعض جوانبه لدعم أمويي قرطبة لثورته؛ ردا على دعم العبيديين لثورة ابن حفصون جنوب الأندلس. وبالتالي كان من تداعيات هذه السياسة تعزيز التحالفات القطبية بين الغريمين، فمن جهة تدعمت جبهة زناتة الموالية للأمويين بانضمام مكناسة تاهرت، وأعرب زعيمهم ابن حميد المكناسي بولائه إلى الناصر لدين الله منذ أواخر رجب 328هـ/11 ماي 940م. ومن ثم غدت الخطبة للخليفة عبد الرحمان الناصر لدين الله تتردد من على منابر طنجة وفاس وتاهرت،[2] باستثناء سجلماسة التي استقل بها الشاكر لله عن الفاطميين، وخطب من خلالها ود الخلافة العباسية في بغداد.

وبموازاة ذلك كان أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني النكّاري يحرض الناس منذ 324هـ/935م[3] للخروج على العبيديين «بناحية جبل أوراس، وركب الحمار، وتلقب بشيخ المؤمنين، ودعا للناصر صاحب الأندلس من بني أمية فاتبعه أمم من البربر،»[4] ثم أعلن الثورة على بني عبيد واستولى على حواضر إفريقية في الفترة ما بين (332و335هـ/943-946م)، ودخل القيروان في صفر عام 332هـ/أكتوبر 943م،[5] «وأظهر لأهلها خيرا، وترحم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ودعا الناس إلى جهاد الشيعة، وأمرهم بقراءة مذهب مالك، «وقام المسلمون معه، وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحرب [الشيعة]،»[6] ثم صدحوا في الأسواق بالصلاة على النبي ﷺ والرضا عن أبي بكر وعمر وسائر الصحابة، حتى ركزوا بنودهم عند الجامع، فلما كان يوم الجمعة، اجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح، ومعهم البنود والطبول.»[7]

البيت نسبة إلى جعفر بن محمد الصادق وإلى علي رضي الله عنهما: منه توريث البنت إذا انفردت جميع المال، وأسقط الرجم على الزاني المحصن، والمسح على الخفين، وقول المؤذن: الصلاة خير من النوم، والصوم بالعلامة والفطر بها لا بالرؤية، وأحل المطلقة ثلاثا، وأسقط أيمان الحرج، ولا يقيم الحد على المحدود إلا أبواه أو جده أو قريبه، وأمرهم بجهاد من خالف مذهبهم.» الحميري، **الروض**، 307.

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 205.

(2) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 154.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 189.

(4) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 205-206؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 49.

(5) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 54؛ الحميري، **الروض**، 307.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج.1، 229.

(7) المصدر نفسه.

ومن خلال الشعارات التي رفعها أبو يزيد وهو «أحد أئمة الإباضية النكّار بالمغرب،»[1] وكذا التقية التي اعتمدها في التظاهر بدعم السنة «بزعمه، ولم يعلم الناس مذهبه، فرجوا فيه الخير، والقيام بالسنة، فخرج على الشيعة ودخل إفريقية.»[2] وقد حاول كَوتيي (Gautier) اختزال ثورة أبي يزيد من مضمونها المذهبي حين عدها واجهة من واجهات الصراع التقليدي المتجدد بين البتر والبرانس.[3]

وعلى كل حال فقد زف ابن كيداد إلى قرطبة خبر انتصاره على العبيديين في منسلخ شوال 333هـ/منتصف يونيو 945م، حيث «قدم على الناصر رسولان من أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار القائم بإفريقية على أبي القاسم الشيعي، برسالة منه يخبر بتغلبه على القيروان ورقادة وعملهما، وإيقاعه بأصحاب أبي القاسم الشيعي فيها، وما يعتقده من ولاية الناصر، ويأوي إليه من اعتقاد إمامته. واتصلت كتب أبي يزيد ورسله على قرطبة من ذلك الوقت إلى حين وفاته.»[4]

هذا بالرغم من أن العبيديين استعادوا زمام المعركة، فأمر أبو الطاهر إسماعيل المنصور(ت341هـ/952م) بمطاردة أبي يزيد وهو مصاب بعد خروجه من جبل بني برزال «فألفوه، وقد حمله ثلاثة من أصحابه لأنه كان جريحا فسقط من الوعر وارتث فحملوه إلى المنصور، فسجد سجدة الشكر إلى سلخ المحرم من سنة ست وثلاثين [وثلاثمائة/947م]. ثم هلك من الجراحة التي به، فأمر بسلخ جلده، وحشوه تبنا، واتخذ له قفصا فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه.»[5] وبالتالي دانت لإسماعيل المنصور بن أبي القاسم بلاد المغرب كلها وإفريقية.[6]

---

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج.1، 228. ذكر ابن خلدون أن أباه كيداد «كان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة وبها ولد ولده أبو يزيد ونشأ بتوزر، وتعلم القرآن وخالط النكّارية من الخوارج، وهم الصفرية فمال إلى مذهبهم، وأخذ به ثم سافر إلى تاهرت، وأقام بها يعلم الصبيان.» ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 49؛ مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 205.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج.1، 228.

(3) Emile Félix Gautier, *le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscures* (Paris : Payot 1937), 354.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 193.

(5) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 53-54. ذكر الحميري رواية مخالفة لنكبة أبي يزيد فقال: «ودارت الحرب بينهم، وأثخن أبو يزيد بالجراح، وقبض عليه حيا فأدخل المهدية في قفص حديد، وصلب على باب المهدية.» الحميري، **الروض**، 307.

(6) الحميري، **الروض**، 307.

• مقاومة السنة للتغلغل الشيعي بإفريقية

o مناهضة المالكية للتعصب العبيدي

عندما استتب الوضع للشيعة بإفريقية أمر أبو عبد الله الداعي بإحضار أم عبيد الله المهدي من طرابلس، وبفك سراح أخيه أبي العباس المخطوم الذي كان مسجونا بها، فلما دخل على أخيه أعرب عن كره مذاهب السنة وطلب منه «أن ينفي المالكية من القيروان، فلم يجبه أخوه إلى ذلك.»[1] لأن تنفيذ ذلك يتعارض مع تسويق شعار العدل ووعد الأمان الذي قطعه على نفسه للقيروانيين،[2] علما أن أهلها كانوا معتدلين في طباعهم اعتدال الإسلام السني الذي بثه بها الحنفية والمالكية، «وكان الغالب على أهلها التمسك بالخير، والتخلي عن الشبهات، واجتناب المحارم.»[3] ثم شرع الداعي في إعادة ترتيب نسق الهيكلة الإدارية للأجهزة التي ورثها من نظام الأغالبة، و«حمل الناس على التشيع.»[4] وشرع في تثبيت شعارات المذهب الجديد.[5]

وبدأت المقاومة السنية المالكية تؤطر العامة لمجابهة إكراه الناس على المذهب الإسماعيلي، خصوصا عندما عمد إلى تعديل الآذان فاسقط من أذان الفجر «الصلاة خير من النوم،» وزاد فيه «حي على خير العمل،» وأمر بالصلاة على علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الخطب بإثر الصلاة على النبي ﷺ، وعين القاضي محمد بن يحيى المروزي(ت 303هـ/915م) على قضاء القيروان، وأمره بإسقاط التراويح في رمضان.[6]

وبذلك شرعت المقاومة السنية في مواجهة أساليب الإكراه المذهبي الشيعي، وتقمص روادها تارة أدوار البله والتحامق لتوجيه النقد اللاذع لسلطة العبيديين وأدواتها، إذ يسقط التكليف على الأحمق ومن في حكمه، وبالتالي رفع عنه القلم والحساب ولا حرج عليه في

---

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج.1، 185.

(2) المصدر نفسه، ج. 1، 184.

(3) المصدر نفسه، ج. 1، 217.

(4) المصدر نفسه، 1، 186.

(5) ضرب السكة «ونقش فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الفاتحة، الآية: 2). وكان نقش خاتم أبي عبد الله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (سورة النمل، الآية: 79)، وفي الخاتم الذي تطبع به السجلات: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة الأنعام، الآية: 115). ووسم في أفخاذ الخيل: «الملك لله». وكتب في بنوده: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (سورة القمر، الآية: 45). ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ (سورة الإسراء، الآية: 81).» ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 185؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 44.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج.1، 185.

تجاوز الخطوط الحمراء، وفي هذا الصدد أورد ابن عذاري أن أحد السنيين الذي تظاهر بالبله وقف على قاضي الشيعة المذكور وهو في جمع من الناس بعد إسقاطه سنة التراويح، وقال له: «لقد تلطفت لنا أصلحك الله، في قطع قيام شهر رمضان، فلو احتلت لنا في ترك صيامه لكفيتنا مؤونته كلها.»[1] فأدرك القاضي مقاصد سخريته، فلعنه وأمر أعوانه بدفعه عنه.[2]

وشكلت الكتابة على الجدران؛ وفي أماكن لها رمزية خاصة كالمساجد ومواضع جلوس القاضي للأحكام، باعتبارها وسيلة للتعبير عن رفض المذهب الإسماعيلي المفروض على الناس، فكانت السخرية الناعمة تؤدي وظيفتها في الاحتجاج دون القدرة على كشف صاحبها أو ملاحقة كاتبها؛ فتسجل القضية ضد مجهول، وفي هذا المنحى المرتبط بإسقاط القاضي المروزي لصلاة التراويح، دخل إلى الجامع في «أول يوم من شهر رمضان [فـ]وجد في موضع جلوسه من الجامع بحائط القبلة مكتوبا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.[3] فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس في ذلك الموضع.»[4]

وفي الوقت الذي قاد عبد الله الداعي حملته على سجلماسة سنة 296هـ/908م لتخليص إمامه المهدي من قبضة الخوارج الصفرية، عهد إلى أخيه أبي العباس المخطوم بالنيابة عنه في تدبير أمور القيروان، فانتهز الفرصة وأشبع تعصبه للمذهب الشيعي، حيث ارتكب مجزرة في حق أهل السنة، حين «قتل بعض فقهاء القيروان وصلحائها لكونهم لا يفضلون عليا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، وصلب أولئك الصالحين والفقهاء على باب القيروان.»[5] ويكون بذلك المخطوم قد أعرب عن تعصبه المذهبي،[6] حيث استغل غياب أخيه أبي عبد الله الذي سبق وأن رفض له طلبا بنفي المالكية من القيروان،[7] وعليه فقد نفذ جريمته بإعدامهم والتمثيل بجثثهم، وأنهى بجريرته سبل الأمن والتسامح والتعايش التي سوق لها الداعي يوم دخوله القيروان.

---

(1) المصدر نفسه، ج. 1، 186.

(2) المصدر نفسه.

(3) سورة البقرة، الآية: 114.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 185.

(5) المصدر نفسه، ج. 1، 187.

(6) ومعلوم أن «العبيديين من الشيعة الإمامية، ومذهبهم البراءة من الشيخين ومن سائر الصحابة، لعدولهم عن بيعة علي، مع وصية النبي ﷺ له بالإمامة بزعمهم، وبهذا امتازوا عن سائر الشيعة.» ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 34.

(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 185.

وبالتالي ظل الأمن على الأنفس والأموال عملة نادرة في ظل التعصب المذهبي لدعاة الشيعة، وفي هذا الصدد لما وصل عبيد الله المهدي إلى القيروان استقبله أعيانها ووجوهها «وسألوه تجديد الأمان لهم، فقال: أنتم آمنون على أنفسكم، ولم يذكر الأموال، فخاف أهل العقل من ذلك الوقت،»[1] وكأنها إشارة واضحة إلى التعدي على أموالهم وموارد عيشهم بالابتزاز والمصادرة، ونكبة المخالفين في المذهب، وخاصة عندما انتقل إلى قصر رقادة في ربيع 297هـ/909م وبويع له البيعة العامة،[2] «وتسمى عبيد الله بالمهدي، وأظهر التشيع والبدعة.»[3]

ولما بنى المهدية «اتخذها معصما لأهل بيته لما كان يتوقعه على الدولة من الخوارج... وقال: اليوم أمنت على الفواطم،»[4] لذلك سام المخالفين في المذهب بمساوئ جمة، منها أنه أمر أن يكون طريق الحج مارا على مدينة المهدية «وجعل على الحجاج مغارم عظيمة يعجز أكثر الناس عنها لأن الحج ليس من مذهبهم.»[5]

o مقاومة أمراء نكور السنيين للزحف العبيدي

بعد إخماد الشيعة للثورات المستعرة في طرابلس والمغرب الأدنى، ولى عبيد الله على تيهرت أعظم قواده وأوليائه مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي في صفر 299هـ/ شتنبر911م.[6] وعليه أصبح الخطر الشيعي يحدق بإمارة بني صالح السنية المالكية في نكور، ولما رفض أميرها الشاب سعيد بن صالح بن سعيد الدخول في طاعة المهدي والتدين بإمامته بالإكراه والتهديد،[7] تحرك من تيهرت ابن حبوس بإيعاز من إمامه وبسط سطوته على نكور واغتال أميرها سعيد المذكور لثلاث خلون من المحرم 305هـ/26 يونيو 917م.[8]

---

(1) المصدر نفسه، ج. 1، 188.

(2) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 44-49.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 188-216.

(4) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 46-47.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 202.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 191؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 158.

(7) وخاطبه الشيعي بأبيات فيها ترهيب وترغيب بقوله:

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا

وأعلو بسيفي قاهرا لسيوفكم وأدخلها عفوا وأملأها عدلا

فأجابه شاعرهم على لسان أميرهم:

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ولا عرف الرحمان من قولك الفضلا

وما أنت إلا كافر ومنافق تميل مع الجهال في السنة المثلى

وهمتنا العليا لدين محمد وقد جعل الرحمان همتك السفلى

ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 198؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 174-175.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 194؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 175-176.

وقبل قفول مصالة بن حبوس إلى تيهرت «انتهبها وسبى النساء والذرية.»[1] وعين على نكور عاملا شيعيا يقال له ذلول، وبعث إلى إمامه عبيد الله برأس سعيد بن صالح ورؤوس جملة من أصحابه، وطُوّفت بالقيروان.[2] بينما لجأت أسرة الأمير الشاب الشهيد إلى الأندلس مستجيرة بظل الأمويين، وفضلت الاستقرار بمالقة لرصد أخبار نكور، فأمر الناصر لدين الله بإنزالهم وإكرامهم.[3]

وأما أهل نكور فقد شكلوا دعامة لنصرة أميرهم الشرعي صالح اليتيم بن سعيد (305-315هـ/917-927م)، ومن خلال المساندة الأموية قاد اليتيم ثورة على ذلول عامل العبيديين؛ فقتلوه وحرروا إمارتهم السنية المالكية. وارتبطوا ببيعة الناصر لدين الله بقرطبة ضمن الوحدة المذهبية، وأهداه أمير نكور أصنافا من الخيل والجمال.[4] ورد الناصر الهدية بأجمل منها «فأمر بإمداد صالح بالأخبية والآلات والأسلحة والبنود والطبول، فتوطد الملك بالمغرب لصالح [اليتيم]بن سعيد.»[5]

الشيء الذي حرك الزحف العبيدي بقيادة ابن حبوس فاستولى على نكور من جديد سنة 308هـ/920م واعتصم اليتيم وقواته بالجبال المجاورة لها استعدادا لمقاومة الشيعة.[6]

وبالتالي وجه العبيديون عنايتهم لواحة سجلماسة من جديد، نظرا للمكاسب التي حققها الصفرية مستغلين انشغال الشيعة في إخماد الثورات الزناتية المذكورة، والمعارك المتقطعة مع أمراء نكور، وذلك أن وفاة عاملهم الفتح بن ميمون في رجب سنة 300هـ/ فبراير913م،[7] كان مؤشرا قويا على صراع النفوذ بسجلماسة، وهو ما خفف الضغط على بني صالح في إمارة نكور.

o الأمويون والخوارج من التوتر والخلاف إلى التنسيق والتحالف

أخلى العبيديون بتراجعهم نحو مصر الطريق لتزايد النفوذ الأموي بالمغرب، وذلك من خلال محاولاتهم الحثيثة لبسط سلطتهم على سجلماسة باعتبارها المزود الرئيس لحوض

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 195.
(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 195؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 176.
(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 195.
(4) المصدر نفسه، ج. 1، 195-199.
(5) المصدر نفسه، ج.1، 200؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 176-177.
(6) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 178.
(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 215؛ حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 111.

المتوسط بالذهب حيث قاد جوهر الصقلي حملته لإخضاع واحة سجلماسة، فدخلها سنة 347هـ/958م، «ففض جموع الخوارج الصفرية.»[1]

وبالتالي عمد أمويو قرطبة إلى تخفيف التوتر المذهبي مع المدراريين على حساب الاستئثار بالمعدن النفيس لدعم طموحهم في التحكم في تجارة غرب المتوسط. ومن ثم ندرك مدى «احتدام الصراع بين الأمويين والفاطميين من أجل التحكم في سجلماسة والإشراف على تجارة الذهب.»[2]

كما أن العلاقات الودية بين الأمويين والإمارات المغربية لم تحد منها الاختلافات المذهبية، فكان الأمير محمد بن عبد الرحمان (238-273هـ/852-886م)، يحظى بالتقدير من خوارج بني رستم، ولاسيما مع وجود عدو مشترك تمثل في الأغالبة وكلاء الخلافة العباسية بإفريقية، حيث خطب وده أمير خوارج بني رستم حين أقدم محمد بن الأغلب بن إبراهيم على بناء مدينة العباسية بالقرب من تاهرت سنة 239هـ/853م، لتكون قاعدة عسكرية لمراقبة التحركات الإباضية «فأخربها أفلح بن عبد الوهاب الإباضي(208-258هـ/823-871م)، وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقربا إليه به، فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم.»[3]

كما شهدت بعض الفترات تطور العلاقة بين زيري بن عطية وأمويي قرطبة، أملتها المصالح المتبادلة من خلال دعم المنصور محمد بن أبي عامر للحلفاء المحليين بالعدة والعتاد ضد الأعداء المشتركين، وترسيخا لأواصر التقارب دعا المنصور زيري لزيارة قرطبة، فدخلها في موكب حفيل قوامه ثلاثمائة فارس ومثلها من عبيده وحشمه الرجال في رجب سنة 382هـ/ شتنبر 992م، واحتفل المنصور في استقباله مفتخرا بقدومه. وكانت نفائس أحمال زيري عربونا على ترسيخ وشائج الولاء والتحالف، حيث «أوصل هدية حافلة من طيور مفصحة بالألسن البشرية ودواب من دواب المسك والغالية وحيوانات غريبة وأسود في أقفاص حديد.»[4]

وبموازاة استعدادت بلكين بن زيري ونائب العبيديين[5] للزحف على برغواطة سنة 368هـ/978م؛ والذي سبق لسفيرها صالح بن زمور أن وفد على الخليفة الحكم المستنصر بالله(ت 366هـ/976م) «رسولا من أمير برغواطة أبي منصور عيسى بن أبـي الأنصار وذلـك

(1) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 94؛ ابن أبي زرع، **روض**، 90؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156.
(2) حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 111.
(3) البلاذري، **فتوح**، 328.
(4) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم، 3، 157؛ ابن أبي زرع، **روض**، 103-104.
(5) النويري، **نهاية**، ج. 24، 85.

في شهر شوال سنة 352هـ/أكتوبر963م،[1] لربط علاقات تجارية وصلات دبلوماسية. وعليه فقد استغل أمويو قرطبة هذا الوضع لصالحهم، في سعيهم للاستئثار بتجارة الذهب بدعم حلفائهم الزناتيين من بني خزر، حيث وضع خزرون بن فلفول يده على سجلماسة وأنهى أمر بني مدرار، وحلت محلها إمارة بني خزرون الموالية لقرطبة.[2]

وبالتالي عزز الخليفة الحكم المستنصر(350-366هـ/961-976م) الوجود الأموي في المغرب وضيق الطوق على العبيديين وحلفائهم «وأوطأ العساكر أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقى دعوته ملوك زناتة ومغراوة ومكناسة فبثها في أعمالهم، وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما يليهم.»[3]

وعلى عكس توجه والده الموالي للعبيديين، نبذ ابنه محمد بن الفتح (الملقب بالشاكر لله (332-347هـ/943-958م) بن الأمير ميمون بن مدرار دعوة الشيعة وأنكر النحلة الخارجية التي سار على نهجها عمه، وقاد انقلابا سياسيا ومذهبيا على ابن عمه سمغون بن المعتز بن محمد، و هو لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره؛ وخلعه لشهرين من تنصيبه سنة 332هـ/943م، وأخرجه من سجلماسة وتملكها.[4] مستفيدا من ظروف الصحوة السنية بإفريقية والأندلس مذاهب أهل السنة، ورفض الخارجية.»[5] وشرع في تطويق المد الشيعي؛ «وقطع الدعوة عن ملوك الشيعة ودعا إلى نفسه وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله.»[6] وبالتالي تبرأ من نحلة الخوارج، وخلع بيعة الفاطميين و«دعا لنفسه مموها بالعباسيين.»[7]

وكان هذا النزوع المشوب بالمداراة يقود أمراء سجلماسة نحو الحفاظ على ولاء اسمي وشكلي للخلافة العباسية اتقاء لنقمة خلفائها.[8] هذا مع العلم أن الموقف الذي تبناه الخوارج هو مناهضة الخلافة العباسية لأنها في نظرهم غير شرعية، ولهذا أفتى أئمتهم بالخروج عليهم وإعلان الثورة كلما توفرت شروط الموضوعية.[9]

---

(1) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 246؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 237-240 وج. 2، 190.

(2) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 105؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 158.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 212-215؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 218-219؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 176.

(4) البكري، **المسالك**، ج. 2، 839. جعل ابن عذاري ولايته عام 321هـ/933م. ابن عذاري، **البيان**، ج.1، 215 وج.2، 189؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 147؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 126.

(5) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156.

(6) البكري، **المسالك**، ج. 2، 840؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 148؛ ابن عذاري، البيان، ج. 2، 189؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 56.

(7) الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 126؛ حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 113.

(8) Evariste Levi-Provençal, *Histoire de L'Espagne Musulmane: Le Califat Umeyyade de Cordoue (912-1031)*, T. I (Paris : Maisonneuve,1950), 249.

(9) Bel, *La religion,* 168.

وإن كان الشاكر لله يتشوف إلى بيعة الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر لدين الله على أساس تبنيه للمذهب المالكي الوسطي، فقد سعى من الناحية السياسية إلى الاستقواء على سبيل التمويه ببيعة العباسيين كأقدم خلافة ناصبت الفاطميين العداء، اعتدادا بقوتهم لكونهم سنة يتبعون المذهب الحنفي، ذلك أن ميله إلى الخلافة الأموية سببه اعتدال مذهب خلفائهم في التدبير والحكم، مقابل غلو نسبي من قبل خلفاء بني العباس أساسه ادعاؤهم ممارسة السلطة بتفويض إلهي.[1]

كما انتهز الشاكر لله تضييق الإباضية طوق الخناق على القاسم بن عبيد الله الملقب بالقائم بأمر الله (15 ربيع الأول 322هـ-13 شوال334هـ/5 مارس934-18 ماي 946م)،[2] بحيث لم يبق تحت نفوذه سوى مدينة المهدية التي ضرب عليها ابن كيداد حصارا محكما،[3]

---

(1) انظر بهذا الشأن مسألة خلق القرآن التي امتحن بسببها بعض خلفاء بني العباس طيفا من العلماء. وبالنسبة لاعتدال خلفاء قرطبة، مدى تجاوب الخليفة الناصر لدين الله مع الانتقادات اللاذعة التي ساقها له قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي (ت. 355هـ/965م) بشأن التطاول في البناء وتنميق زخرفة القصور، حيث كان اتخذ لقباب قصره قراميد مغشاة بالذهب والفضة، وجلس يوما تحتها مفتخرا بما صنع، فقال له البلوطي على وجه النصيحة دون مداراة: «والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قبلك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، قال: فانفعل عبد الرحمان لقوله وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلتني منزلتهم؟ فقال له: نعم، أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ (سورة الزخرف، الآيتان: 33-34) فوجم الخليفة، وأطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله سبحانه، ثم أقبل على منذر وقال له: جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيرا، وعن الدين والمسلمين أجمل جزائه، وكثر في الناس أمثالك، فالذي قلت هو الحق، وقام عن مجلسه ذلك، وأمر بنقض سقف القبة، وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها.» الفتح بن محمد بن خاقان، **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، تحقيق محمد علي شوابكة (بيروت: دار عمار-مؤسسة الرسالة، ط. 1، 1403هـ/1983م)، 257-258-259؛ أبو الحسن علي النباهي، **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (أو تاريخ قضاة الأندلس)**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط. 5، 1403هـ/1983م)، 71-72؛ شهاب الدين أحمد المقري (ت. 1040هـ/1630م)، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، ضبطه وحققه وعلق عليه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ج. 2 (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1358-1361هـ/1939-1942م)، 280-281-282؛ عبد الحي بن أحمد العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج. 4، حققه وعلق عليه محمد الأرناؤوط، إشراف عبد القادر الأرناؤوط (دمشق-بيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط .1، 1408-1413هـ/1988-1992م)، 264-265؛ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج. 16، تحقيق أكرم البوشي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. 1، 1404ه/1984م)، 177؛ شهاب الدين أحمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ج. 1، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1408ه/1988م)، 573-574-575.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 218.

(3) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 48.

بحيث فشلت حركة القاسم بن عبيد الله الذي ظل محاصرا في المهدية ينتظر وصول الدعم من حلفائه الكتاميين.[1]

غير أن نوازع الخلاف الذي شجر بين أتباع أبي يزيد النكاري، كان عاملا حاسما في اضطراره لرفع الحصار عن المهدية سنة 334هـ/945م، وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها أبوه المهدي سلفا وفرقها، فانتعشت أحوال أهلها بعد ما كادت المجاعة تعصف بأرواحهم.[2] ثم حاول النكاري خطب ود الناصر لدعمه وإمداده حسب ما يفهم من إرسال وفد إلى قرطبة برئاسة أيوب ابن أبي يزيد «فقعد له الناصر قعودا، فأوصله إلى نفسه، وكرم لقاءه، وأمر بإنزاله في قصر الرصافة.»[3]

وإلى جانب مناهضته للعبيدين كما أسلفنا، نظم الأمير محمد بن الفتح حملات للتعبئة لجهاد خوارج برغواطة سنة 340هـ/951م نصرة منه لأهل السنة بدليل ما أورده ابن حوقل باعتباره شاهد عيان متعصب للشيعة، وساخراً من تحريض أمير سجلماسة للبربر ضد خوارج برغواطة بقوله: «كنت ألفيت محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله بسجلماسة يدعو إلى غزوهم في سنة أربعين وثلاثمائة، وأظنه هلك ولم يبلغ منهم محابّه لقلة إجابة من كان يدعوه إلى غزوهم من البربر، وخوفهم من اطراد حيلة لمحمد بن الفتح الشاكر لله عليهم في ذلك.»[4]

ولعل قيام الشاكر لله بالدعوة إلى جهاد برغواطة، نابع من طموحه في كسر شوكة أمير تامسنا أبي الأنصار عبد الله (300-341هـ/912-952م) حتى في آخر عهده لِما لحق القبائل من سطواته في فرض ديانة جده وأبيه أبي الغفير محمد بن معاد (270-300هـ/883-912م)، «وكان كثير الدعة مهابا عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة.»[5]

ويبدو أن الأمير أبا الأنصار عبد الله(300-341هـ/912-952م) قد استلهم من النصيحة التي وجهها أمير برغواطة المؤسس صالح بن طريف(ت128هـ/745م) لابنه إلياس بن صالح(128-176هـ/745-792م) حين «أمره بموالاة أمير الأندلس،»[6] ما جعله يوجه عناية ولي عهده أبي منصور عيسى وخلفه من بعده(ولي سنة 341هـ/952م) بخطب ودّ أمويي قرطبة

(1) ذكر النويري أن القائم كتب أثناء الحصار إلى زيري «يعلمه ما الناس فيه من الجهد والغلاء. فبعث إليه زيري بألف حمل حنطة، وأخرج معها مائتي فارس من صنهاجة وخمسمائة من عبيده، فلما وصل ذلك إلى المهدية، بعث القائم له هدية لم يسمع بمثلها كسا جليلة وخيل مسومة بسروج محلاة.» النويري، **نهاية**، ج. 24، 89.

(2) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 51.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 195.

(4) ابن حوقل، **صورة**، 83.

(5) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 247.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 88-240؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 246؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم، 3، 180-181.

للتخفيف من حدة التوتر مع السنة،[1] كما كان من شأن العلاقات الدبلوماسية والتجارية التي عقدها أبو منصور عيسى مع الأندلس تثبيت التهدئة مع الأمويين وحلفائهم المحليين، ثم الاستعداد للمواجهة الحتمية مع العبيديين، وبالفعل شن حليف الشيعة بلكين بن زيري هجوما كاسحا على برغواطة انتهى بمقتل أبي منصور عيسى سنة 368هـ/978م، وظل بلكين يكرر جولاته وغزواته في بلادهم على مدى أربع سنوات من ظفره بأميرهم أبي منصور.[2]

- **احتدام صراع الوكلاء بين العبيديين والأمويين**

بعد إعلان الخلافة السنية في الأندلس من قبل الناصر لدين الله في ذي الحجة سنة 316هـ/يناير929م، انتقد إمامة العبيديين واعتبر ادعاء أئمتهم للعصمة مروق من وسطية الإسلام، وبالتالي لا شرعية لإمامة يحاكي خلفاؤها الأنبياء في عصمتهم، فأسقط بذلك عنهم لقب الخلافة بقوله: «وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه. وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه.»[3]

وهي إشارة ضمنية تحسر فيها على تهاون الداخل منهم إلى الأندلس في اتخاذ لقب الخلافة في إطار الاستمرارية لخلافتهم بالمشرق التي تطاول عليها غيرهم، ولذلك آثر الناصر اللقب السلطاني «وذلك حين هاجت الخلافة العباسية وضعفت، وظهرت الدولة التركية والديلمية، فصارت إمرة المؤمنين لائقة بمنصبه، وكلمة باقية في عقبه، فاستهل الخطيب بجامع قرطبة أحمد بن بقي بن مخلد بذكر هذا الاسم المخلد يوم الجمعة [مستهل ذي الحجة] من سنة ست عشرة وثلاثمائة [منتصف يناير 929م].»[4]

هذه النبرة الحادة، وهذا النقد اللاذع جاء بعدما بايع ابن حفصون (270-315هـ/883-927م) العبيديين، وأعلن الثورة على الأمويين جنوب الأندلس، ولذلك عندما دخل الأمويون مدينة ببشتر مقر الثوار في ربيع الآخر سنة 315هـ/927م،[5] خربوا حصونها لمناعتها وهدموا المسجد الجامع الذي شيده عمر بن حفصون؛ «فسوي بالأرض وأحرق منبره الذي حمل عليه

---

(1) صالح بن طريف «وكانوا يسمونه صالح المؤمنين -كما حكاه البكري-عن زمور بن صالح بن هاشم بن وراد الوافد منهم على الحكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم أبي عيسى بن أبي الأنصاري سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة[963م].» ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 246.

(2) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 148؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 67؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 96.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 184.

(4) المصدر نفسه، ج. 2، 165-166.

(5) أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي، **المقتبس**، ج. 5، اعتنى بنشره شالميتا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع كورينطكي وصبح وغيرهما (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1979م)، 209-210-231-232؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 181-182.

الدعاء للعين المرتد [أي ابن حفصون]، وجرى عليه ذكر وليه عبيد الله الشيعي الذي كان علق [به] حبله وتشبث بدعوته.»[1] وحرص الناصر على أداء الصلاة في مسجد ببشتر المهجور «فصلى فيه، وأمر أن توصل فيه الصلوات التي كانت ممنوعة منه.»[2]

وبالتالي استعر استقطاب الوكلاء المحليين من كلا الطرفين، حيث شكلت قبيلتا زناتة وصنهاجة فرسي رهان مدعومين بالعدة والعتاد لتجنيد المقاتلين لتحقيق المصالح الاقتصادية والسياسية والمذهبية، ذلك أن «زناتة كانت تقوم بدعوة الأمويين،»[3] وبالمثل «كانت صنهاجة تقوم بدعوة العبيديين.»[4]

ولما فرغ الفاطميون من ثورات زناتة، نظموا حملات مستهدفين إسقاط إمارة سجلماسة التي غدت موئلا للسنة ومحجا لفقهاء المالكية خلال أواخر القرن الرابع الهجري، ولا غرو فقد كان يتشوف مدرار بن عبد الله إلى جعلها قلعة لأهل الحديث، حيث تواتر في المصادر أنه «لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وسمع منه.»[5] ومن ثم يعد عكرمة رأس دعاة الصفرية بإفريقية.[6]

كما تزايد اهتمام الفاطميين بسجلماسة أكثر من غيرها من المدن والحواضر، وذلك سعيا منهم للتحكم في المحور التجاري الواصل بين الواحات جنوبا، وموانئ البحر المتوسط شمالا. وبالتالي فبعد استفادتهم معنويا من الحملة التجميلية لصورتهم بالشرق، لما ناله أبو الطاهر إسماعيل المنصور الفاطمي (334-341هـ/945-952م) في حركته نحو المشرق سنة 339هـ/950م، من شرف إرجاع الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام، وكان الذي اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطي سنة 317هـ/929م، في أيام المقتدر العباسي(295-320هـ/908-932م).[7]

غير أن جميل الثناء الذي كسبه الفاطميون في الحجاز، سعوا إلى تثمينه من خلال تنظيم حملات لتوسيع مجال نفوذهم وتضييق دائرة تمدد خصومهم من أهل السنة، خصوصا إذا أدركنا أن سجلماسة التي تطلع الشيعة إلى إخضاعها، عرفت تحولا في مذهبها وولائها مع استتباب الأمر فيها للأمير محمد بن الفتح حيث سك الدنانير والدراهم باسمه «تقدست

(1) ابن حيان، **المقتبس**، ج. 5، 219-220.
(2) المصدر نفسه، ج. 5، 216.
(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 274.
(4) المصدر نفسه.
(5) الحميري، **الروض**، 305.
(6) محمود إسماعيل، **الخوارج**، 47.
(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 233.

عزة الله» سنة 342هـ/953م، «وكانت تسمى بالشاكرية.»[1] وتسمى بأمير المؤمنين، وتلقب بالشاكر لله.[2] وسار في أهلها سيرة حسنة «وكان غاية في إظهار العدل وإقامة السنة، وكان مالكي المذهب.»[3]

وكان رد فعل العبيديين أن قاد جوهر الصقلي حملة لإخضاع واحة سجلماسة، فدخلها سنة 347هـ/958م، «ففض جموع الخوارج الصفرية.»[4] فلجأ الشاكر لله إلى الاعتصام «بحصن منيع من أحواز سجلماسة؛ يعرف بتاسجدلت،»[5] وهو على بعد اثني عشر ميلا منها بأهله وماله وبعض أصحابه،[6] إلى أن كشف أمره «فغدر به قوم من مطغرة فقبضوا عليه،»[7] ثم اقتادوه إلى جوهر «فأخذه أسيرا بلا عهد،»[8] ثم حبسه في قفص من الخشب وأوثقه في الحديد، واصطحبه معه إلى فاس فحاصرها حتى دخل على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي. فظفر به ونهب المدينة وسبى أهلها وهدم سورها،[9] ثم انصرف جوهر إلى إفريقية سنة 349هـ/960م ومعه الأسيرين من ولاة المروانية، «وطيف بهما في أسواق القيروان، ثم حملا بعد ذلك إلى المهدية وبقي [الشاكر] في معتقله إلى أن توفي سنة 354هـ/965م، فكانت أيامه إحدى عشرة سنة.»[10]

---

(1) ابن أبي زرع، **روض**، 90؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 189؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156.

(2) البكري، **المسالك**، ج. 2، 840؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 215؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 56.

(3) البكري، **المسالك**، ج. 2، 840؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 215؛ ابن أبي زرع، **روض**، 90؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156.

(4) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 94؛ ابن أبي زرع، **روض**، 90؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156.

(5) البكري، **المسالك**، ج. 2، 840. أشار ابن الخطيب إلى أن هذه الحملة كانت سنة 349هـ/960م. ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 148.

(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 235. ذكر ابن خلدون بالفظ آخر بقوله: «وفر محمد بن الفتح إلى حصن تاسكرات على أميال من سجلماسة وأقام به.» ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 156؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 126.

(7) البكري، **المسالك**، ج. 2، 840؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 215؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 158؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 126.

(8) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 94.

(9) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 95؛ ابن أبي زرع، **روض**، 90-91؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 56.

(10) ابن أبي زرع، **روض**، 90-91؛ مؤلف مجهول، **مفاخر**، 95؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 56؛ الناصري، **الاستقصا**، ج. 1، 126. قال ابن عذاري عن ولاية الشاكر لسجلماسة: «فمكث كذلك إلى أن قربت منه عساكر أبي تميم معد العبيدي.» ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 215. وقال في موضع آخر: «فغدره قوم من مدغرة عرفوه، وأتوا به إلى جوهر، فقتله في رجب، وبقي جوهر في الغرب مدة سنة، وتوجه إلى إفريقية.» ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 236. وقال ابن عذاري: اعتقل برقادة إلى أن توفي بها سنة 354هـ/965م. ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 149؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 158.

ونصب جوهر على ولاية سجلماسة مبادر بن زيري الموالي للعبيديين، وبعد وفاته سنة 357هـ/968م،[1] خلفه ابنه يصليتن بن مبادر وظل على ولائه للشيعة، «وقطع الدعوة بها للمروانيين وردها للعبيديين،»[2] إلى أن غزا محمد بن أبي عامر عامل الشيعة وقتله، وخطب لهشام المؤيد بها.[3]

غير أن انشغال الفاطميين بأحوال مصر الإخشيدية الضعيفة بعد موت كافور الإخشيدي سنة 357هـ/968م،[4] أملى على الخليفة معد بن إسماعيل بن أبي القاسم، الملقب بالمعز لدين الله(341-365هـ/952-975م) تسيير حملة بقيادة جوهر الصقلي سنة 358هـ/968م، إلى مصر فافتتحها،[5] وهرب أعيان الإخشيدية من مصر إلى الشام قبل وصول جوهر.[6] ثم دخل مصر «وخطب في الجامع العتيق منه باسم المعتز وأقيمت الدعوة العلوية... وأمر بزيادة حي على خير العمل في الآذان»[7] «فعمد المعز لدين الله إلى مغادرة إفريقية باتجاه القاهرة التي غدت قاعدة سلطان الشيعة الفاطميين منذ سنة 362هـ/972م.[8]

إن الفراغ الذي تركه العبيديون ببلاد المغرب، سيدخل على خط رتقه حلفاؤهم الصنهاجيون، «وكان زيري مواليا لملوك الشيعة، استظهارا بهم على عدوه من زناتة،»[9] باعتبار زناتة حلفاء بني أمية منذ إسلام جدهم حرب على يدي الخليفة عثمان بن عفان.[10]

وبالتالي كسب الصنهاجيون ثقة وكلائهم الشيعة، وذلك منذ أن اختبرهم الخليفة العبيدي أبو الطاهر إسماعيل المنصور أثناء مطاردة ثوار أبي يزيد النكاري،[11] ومحاصرته في جبل بني برزال سنة 335هـ/946م وكاد الجوع يعصف بقوات المنصور ثم انجبرت حال أتباعه

---

(1) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 149-150.

(2) ابن أبي زرع، **روض**، 90.

(3) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 150؛ حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 114.

(4) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 57.

(5) النويري، **نهاية**، ج. 24، 85.

(6) ابن خلدون، **البيان**، ج. 1، 234.

(7) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 57-58.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 244-245؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 60. يجعل النويري مغادرة المعز للمنصورية باتجاه القاهرة سنة 361هـ/972 م. النويري، **نهاية**، ج. 24،92-93.

(9) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3،61.

(10) «وكان جدهم حرب بن حفص بن صولات بن وازمار بن مغراو مولى أمير المؤمنين عثمان بن عفان أتى به إليه من سبي إفريقية في أول فتحها، فأسلم على يديه وحسن إسلامه. فمن هذه النسبة، وهذه الوسيلة كان ميلهم إلى بني أمية بالأندلس ونفرتهم عن أضدادهم من بني عبيد الله العلوية.» ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 153. وأورد صاحب المفاخر جدهم باسم خزر بن حفص بن صولات. مؤلف مجهول، **مفاخر**، 95. ودعاه ابن حيان باسم صقلاب بن وزمار. ابن حيان، **المقتبس**، ج. 5، 257.

(11) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 61.

بالتحاق أمير صنهاجة زيري بن مناد بالجيش الفاطمي، فأبلى هو وقومه احسن البلاء.[1]

ولذلك ظل الكتاميون أوفياء لخدمة مصالح العبيديين بعد رحيلهم إلى مصر لما يناهز عقدا من الزمن. وذلك إلى حين ظهور المنافس السني في خلافة هشام المؤيد، حيث أرسل المنصور محمد بن أبي عامر ابنه عبد الله على رأس حملة إلى سجلماسة سنة 374هـ/984م، فأخضعها وجعل على ولايتها أبا مطر المغراوي الذي استمر في إدارة شؤون الأمويين بسجلماسة حتى وافاه أجله سنة 387هـ/997م.[2]

اشتد الصراع بين الفاطميين والأمويين على مناطق النفوذ ببلاد الغرب الإسلامي، واتخذ هذا الصراع طابعا مذهبيا سنة وشيعة، وسياسيا خلافة وإمامة، لكن احتدم أكثر من خلال رغبة كل طرف في بسط نفوذه على محاور تجارة الذهب والعبيد بواحة سجلماسة، ولا أدل على أهمية سجلماسة لدى الطرفين مما حشده العبيديون منها من أحمال الذهب عند انتقالهم إلى مصر،[3] بحيث أمد بلكين المعز «بألفي جمل لحمل أمواله من إبل زناتة.»[4] ولا غرو فقد كان عند السجلماسيين «الذهب جزاف عدد بلا وزن.»[5] ولذلك استوطنها التجار والحرفيون اليهود «لما علموا أن التبر بها أمكن منه بغيرها من بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه.»[6]

مقابل ذلك دعم الأمويون مغراوة التي كانت لها الرئاسة في القبائل الزناتية، بالعدة والعتاد والرجال، وثني الخليفة الناصر لزعمائهم «عن ولاية الدعي عبيد الله الشيعي، المنتزي على بلد إفريقية المضلل للناس بما شرع من بدعته وإطفاء من نور السنة، وما تهيأ له من استجابة كثير منهم [زعماء البربر]لدعوته، وتصييره لهم حربا لعبيد الله عدوه،»[7] واعتبر الناصر هذه المبادرة من خلافة قرطبة السنية وسيلة مشروعة لتطويق المد الشيعي والحد من سطوته بدعم مغراوة لمواجهة دعاة العصمة، فكان «ممدا لمن عجز برجاله، مقويا لمن ضعف بماله...متعهدا بوجوه رسله وخواصه، إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه، وارتسموا بطاعته، ولاسيما عند امتياز أضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيد الله.»[8]

---

(1) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 61-62؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 53.

(2) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 150.

(3) قدر ذلك ابن الخطيب بـ«ألف حمل من الذهب.» ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 58.

(4) النويري، **نهاية**، ج. 24، 92.

(5) البكري، **المسالك**، ج. 2، 840.

(6) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 202؛ الحميري، **الروض**، 306.

(7) ابن حيان، **المقتبس**، ج. 5، 255.

(8) ابن أبي زرع، **روض**، 88؛ مؤلف مجهول، **مفاخر**، 94.

وبالتالي اعتمدت خلافة قرطبة بعد إعلانها على حماية سواحلها الجنوبية من الاختراقات العبيدية، فبسط الأسطول الأموي نفوذه على المجال البحري، وسعى الناصر لدين الله إلى إيجاد حاضنة محلية من قبائل مغراوة الزناتية منذ 317هـ/929م وربط علاقة وطيدة بهم وفي طليعتهم «محمد بن خزر، عظيم أمراء زناتة في وقته، وأنفرهم عن عبيد الله الشيعي، وأدناهم من داره، وأول من تناوله الناصر لدين الله من جماعتهم بمكاتبته واجتذبه بوصلته،»[1] وبالتالي أصبح المغراويون -وتحت الضغط الفاطمي- خارج موطنهم الأصلي حوض الزاب وأصبحوا يتحكمون في مراقبة المجال الممتد ما بين تاهرت شرقا وتلمسان غربا، وبين الهضاب العليا والساحل من جهة، وليسهل التواصل مع حلفائهم الأمويين من خلال الإمدادات والقيام بدور الوساطة في التجارة الصحراوية مع خلفاء قرطبة.[2]

وبالمثل فإن بسط العبيديين نفوذهم على سجلماسة، واحتكارهم لتجارة المعدن النفيس كان من بين العوامل التي جعلت قبائل مكناسة الزناتية تيمم وجهها صوب التحالف مع الأمويين، وتعزز الحلف السني بمكناسة المتمركزة في حوض ملوية وكانت الزعامة لموسى بن أبي العافية(ت 341هـ/952م)، وقد استفاد منذ عهد الناصر من التجهيز و«أمده بالخلع والأموال، وقوّى أيده،»[3] وجعله قائما على أمن المجال الممتد من الساحل حتى مدينة فاس، «فلما ملك ابن أبي العافية مدينة تلمسان ونكور وفاس بايع عبد الرحمان الناصر.»[4]

وتعزيزا لأمن الشريط الساحلي بالشمال الغربي للمغرب، وتطهيره من الوجود الشيعي بسط الخليفة الأموي الناصر لدين الله نفوذه على مدينة سبتة سنة 319هـ/931م وجعل عليها فرج بن عفير «وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده، وصارت مفتاحا إلى العدوة»[5] وكذا طنجة، بعدما تخلى عنهما مضطرا حليفه الأمير الإدريسي أبو العيش أحمد بن القاسم كَنون بن محمد (337-343هـ/948-954م) و«خطب بدعوة عبد الرحمان الناصر من بني أمية في جميع عمله في مدينة بني داود والبصرة وأصيلا وطنجة وسبتة وما إلى ذلك.»[6] وبالتالي فشت دعوة الناصر في المغرب الأقصى على حد قول ابن خلدون.[7]

(1) ابن حيان، **المقتبس**، ج. 257،5.
(2) عزاوي، **مختصر**، هامش 4، 145.
(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 186.
(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 210؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 215؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 48.
(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 212-215.
(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 212-215، مؤلف مجهول، **مفاخر**، 94؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 218-219.
(7) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 169.

وبالمثل حافظت صنهاجة إفريقية على ولائها التاريخي للشيعة،[1] فقاد جوهر الصقلي حملته الطويلة التي استغرقت ثلاثين شهرا، مدعوما بمقاتلي صنهاجة وعلى رأسهم زعيمهم زيري بن مناد هجوما كاسحا على مكناسة تاهرت حلفاء الأمويين سنة 347هـ/958م وأنهى سلطة صاحبها يعلى الزناتي.[2]

ولما انصرف القائد العبيدي جوهر إلى إفريقية في أواخر سنة 349هـ/960م نكث صاحب البصرة الأمير «الحسن بن كَنون بيعة العبيديين وعاد إلى بيعة المروانيين وتمسك بدعوة الناصر ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعده خوفا منهم لا محبة فيهم لقرب بلادهم منهم.»[3]

ولذلك تحين فرصة قدوم بلكين بن زيري بن مناد إلى المغرب لأخذ ثأر أبيه من زناتة، فكان الحسن بن كَنون من المبادرين لتقديم البيعة لمعد بن إسماعيل وخلع بيعة الحكم المستنصر، قال ابن أبي زرع: «فكان أول من سارع إلى بيعته ونصره وقتل أولياء المروانيين وقطع دعوتهم من بلاد المغرب الحسن بن كَنون صاحب البصرة.»[4]

فحاول الخليفة الحكم المستنصر الانتقام منه، وبعث له صاحب حروبه غالب الذي ضرب حصارا خانقا على الحسن بن كَنون الذي اعتصم بحصن حجر النسر القريب من سبتة في غرة محرم سنة 363هـ/2 أكتوبر 973م،[5] فاستسلم الحسن بن كُنون ووقع في قبضة القائد غالب الذي دخل مدينة فاس، ثم انصرف إلى الأندلس فحمل معه الحسن بن كُنون وجميع ملوك الأدارسة.[6] ومن ثم قطع دعوة بني عبيد إلى أن غلب عليها فاس من جديد زيري بن عطية الزناتي المغراوي.[7] وبالتالي «انقرضت أيام الأدارسة بالمغرب [بمقتل] الحسن بن كُنون آخر ملوكهم في جمادى الأولى سنة 375هـ[/أكتوبر 985م].»[8]

---

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 274.

(2) وعاد جوهر أدراجه إلى إفريقية في حملته الطويلة هاته سنة 349هـ/960م، بعدما أشرف على تنصيب أمير جديد على سجلماسة. وفي طريق عودته دخل فاس من جديد وخرجت من التبعية للأمويين. ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 220.

(3) ابن أبي زرع، **روض**، 91.

(4) ابن أبي زرع، **روض**، 91. وقال صاحب المفاخر: «فعند ذلك طمع حسن بن قنون صاحب البصرة وأصيلا وأعمال قاصية سبتة؛ وآخر ملوك الأدارسة في الوثوب بأصحاب الخليفة الحكم، فكشف وجهه في الخلاف وقطع الدعوة، وصير قلعة الحجر الدانية من سبتة معقلا له.» مؤلف مجهول، **مفاخر**، 98.

(5) جعل ذلك سنة 362هـ/972م. مؤلف مجهول، **مفاخر**، 98-99.

(6) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 99.

(7) ابن أبي زرع، **روض**، 91. استفاد الحسن بن كُنون من عفو الحكم المستنصر، ثم توجه إلى تونس فأمده نزار بن معد بعدة وعتاد وكتب له بعهده إلى المغرب سنة 373هـ/983م، فظفر به الوزير أبو الحكم فأمره المنصور محمد بن أبي عامر بقتله، فقتل وقطع رأسه وحمل إلى المنصور في جمادى الأولى سنة 375هـ/شتنبر985م. ابن أبي زرع، **روض**، 93-94.

(8) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، 197؛ ابن أبي زرع، **روض**، 94-95.

ولعل مناهضة الأدارسة للعبيديين والمروانيين تارة والتظاهر بموالاة إحداهما على عدوتها تارة أخرى يجد تفسيره في اعتقادهم بأحقيتهم في الخلافة دون غيرهم،[1] لكن شروط القوة التموينية والمالية والعدة والعتاد كانت لصالح قرطبة وإفريقية ثم القاهرة، وتم استنزافهم في معارك غير متناهية «وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين وغالبين كبيرين: دولة العبيديين بمصر وإفريقية، ودولة بني أمية بالأندلس، وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم.»[2]

شكل الصراع المذهبي في تاريخ المغرب الإسلامي معضلة فرضت على السلط الحاكمة إجراء تقييم نفعي تقرره مصلحة التحالف مع الأقوى تأثيرا في الشارع والمجتمع، وبالتالي تزاوج بين خيارين في التعامل مع المذاهب المعارضة، فإذا لم يجد أسلوب الاحتواء والعطاء، تنتقل السلطة عبر أجهزتها إلى خيار المضايقة والعنف، ودعم الحلفاء لخوض حروب عنها بالوكالة.

o وكلاء القوى الكبرى بين الولاء والانتزاء

بعدما خرج الفاطميون من إفريقية ونقلوا سلطتهم إلى مجالهم الجديد بمصر سنة 361هـ/972م،[3] عين المعز نائبه يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي، الملقب بأبي الفتوح بلكين بن زيري الصنهاجي أميرا على إفريقية والمغرب كله،[4] باستثناء جزيرة صقلية وولاية طرابلس.[5] وذلك «ليكون له ردءا ولملكه بالمشرق عدلا،»[6] وأمر سائر الناس بالسمع والطاعة لأبي الفتوح.[7] ثم عهد إليه بتضييق الخناق على الزناتيين «المعقودة أيديهم بملوك بني أمية بالأندلس، أعداء الشيعة،»[8] وذلك بإجلائهم من المغرب الأوسط، فطاردهم سنة 361هـ/971م وشن عليهم الغارات إلى أن أبعدهم إلى ما وراء ملوية بالمغرب الأقصى.[9]

---

(1) «فكان هؤلاء الأدارسة من الذين ينازعون الخلفاء، ولا يسمون إلى درك الخلافة.» مؤلف مجهول، **مفاخر**، 93.

(2) ابن أبي زرع، **روض**، 95.

(3) جعل ابن الخطيب دخول المعز إلى مصر سنة 358هـ/968م. ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 58.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 245؛ مؤلف مجهول، **مفاخر**، 102؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 59؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 59؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 85-93. استخلف العبيديون «بلقين بن زيري بجميع إفريقية والمغرب. ففوض إليه، وسماه يوسف، وكناه أبا الفتوح. ولقبه سيف العزيز بالله يعني نزار بن معد.» ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 65؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 59 وج. 6، 122.

(5) وبالنسبة لولاية طرابلس فقد طلب بلكين من نزار بن المعز ضمها إليه، فسلمها إليه هي وسرت وما والاهما وأجدابية سنة 367هـ/977م. النويري، **نهاية**، ج. 24، 93-95.

(6) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 61.

(7) النويري، **نهاية**، ج. 24، 93.

(8) ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 61.

(9) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 97-98؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 59؛ حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 114.

ثم توجه بلكين في رمضان سنة 362هـ/972م إلى تيهرت بطلب من عامله عليها بسبب ثورة أهلها عليه، مستغلين مغادرة العبيديين لإفريقية «فسار إليهم وقاتلهم. ودخل البلد بالسيف في شهر رمضان، فقتل وسبى ونهب وأحرق البلد.»[1]

مقابل ذلك عهد الأمويون إلى وكلائهم من بني خزر الزناتيين بتنظيم حملة على سجلماسة للقضاء على النفوذ الفاطمي بها وصيانة مصالحهم التجارية، فزحف خزرون بن فلفول بن خزر الزناتي سنة 366هـ/976م على أبي محمد المعتز والي الفاطميين بسجلماسة وقتله واستولى على بلده وذخيرته،[2] وأعلنوا بها عن قيام إمارة بني خزرون تحت طاعة قرطبة، «وبعث خزرون برأس المعتز إلى الأندلس، مع كتاب الفتح واستحكم بها [سجلماسة] ملك زناتة وأتباعهم.»[3] وبالتالي أقام خزرون «دعوة هشام بأنحائها فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى، وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب.»[4]

فكان رد فعل الفاطميين قويا بإمارات المغرب الأقصى التي أضحت خاضعة للنفوذ الأموي بعد انتزاع سجلماسة من أدعيائهم المدراريين، حيث فشل وكيلهم أبو الفتوح بلكين في الحصار الذي ضربته قواته على سبتة الخاضعة لقرطبة «فلما أشرف عليها، تأمل الوصول إليها، فرأى من تحصينها ومنعتها ما لا يستطاع إدراكه إلا بالمراكب البحرية، فرجع عنها.»[5]

وكان المنصور بن أبي عامر قد قتل ابن الأندلسي (جعفر بن علي بن حمدون)، وبعث برأسه إلى أبي الفتوح، وأراد أن يرضيه بذلك،[6] واكتفى أبو الفتوح بإطلاق أيدي مقاتليه في تخريب مدينة البصرة سنة 368هـ/978م، و«محا رسمها بعد طول مدتها وكثرة عمارتها... فاستحالت الجيوش والأمم عليها، فصارت كأن لم تغن بالأمس.»[7]

ولما خربت قوات بلكين الصنهاجية مدينة البصرة، توجه بحملته نحو خوارج برغواطة، وكان ملكهم عيسى بن أبي الأنصار «شعوذيا ساحرا، فسحر من عقولهم حتى جعلوه نبيا وأطاعوه في كل ما أمرهم به، وشرع لهم شريعة، وأتاهم بغير دين الإسلام. فاتبعوه فضل

(1) النويري، **نهاية**، ج. 24، 93.
(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 248؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 158.
(3) ابن عذاري، **البيان**، 1، 248.
(4) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 158؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 84.
(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 250؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 96.
(6) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 249.
(7) ابن عذاري، **البيان**، ج.1، 249-250؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 96.

وأضلهم.»[1] فحاربهم بلكين وقتل صاحب نحلتهم وهزمهم «وسبى من نسائهم وذراريهم ما لا يحصى كثرة، وأرسل بسبيهم إلى إفريقية.»[2]

وغدت إمارات مغراوة تدين بالولاء للخلافة الأموية، وهي إمارة زيري بن عطية بفاس،[3] وإمارة لقوط الزناتي بأغمات، وإمارة خزرون بن فلفول بسجلماسة التي قامت على أنقاض إمارة الخوارج الصفرية، وبذلك انقرض منها ملك بني مدرار المكناسيين.[4]

وخلف وانودين أباه خزرون ودخل سجلماسة سنة 373هـ/983م،[5] بعدما ضعفت شوكة الصنهاجيين الذين شكل منهم بلكين قواته التي تلقت ضربات على يد برغواطة، وانتهت صولتهم بوفاة أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي عند قفوله من قتال برغواطة، وانفصاله من سجلماسة في ذي الحجة سنة 373هـ/ماي 984م متجها إلى إفريقية،[6] وبالتالي أسدل الستار على التهديد الفاطمي للمغرب.

وعليه فإن الصراع المحتدم بين القطبين الشيعي والسني، سمح للفاطميين في مراحل قوتهم بإضعاف الخوارج عسكريا، ووجدوا في المساندة السنية المالكية للخلافة الأموية متنفسا، تخلى من خلاله معظم الخوارج عن التعصب لنحلتهم، ولاسيما بعدما استوعب الأمويون الزناتيين ضمن فيالق قواتهم، فتأثروا بمذهبهم وبساطة عباداتهم، وحتى النكّاريين حاولوا استغلال الولاء للأمويين في حربهم ضد الشيعة، لكن بالرغم من ذلك اقتنع بعض أتباع أبي يزيد بعد اندحاره أمام الفاطميين باعتناق المذهب المالكي لملائمته لفطرة البداوة القائمة على نبذ التعقيدات،[7] فتفرق عنه جمعه و«انتقض البربر عليه بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات...ورجع إلى القيروان سنة334هـ[945م].»[8]

---

(1) لعله يقصد ابنه صالح بن عيسى بن أبي الأنصار. النويري، **نهاية**، ج. 24، 96.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 256؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 96.

(3) دعا زيري بن عطية المغراوي لهشام المؤيد وحاجبه ابن أبي عامر، وملك مدينة فاس وصيرها دار ملكه سنة 377هـ/987م، وغلب على جميع بوادي المغرب، وعلا أمره وارتفع شأنه. وذلك بعد انقطاع أيام الأدارسة وبني أبي العافية المكناسيين منه. ابن أبي زرع، **روض**، 102؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 155.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 264-274؛ حسن حافظي علوي، «بنو خزرون،» **معلمة المغرب**، ج. 5 (سلا: مطابع سلا، 1992م)، 1523.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 276.

(6) المصدر نفسه، ج. 1، 258؛ مؤلف مجهول، **مفاخر**، 107؛ حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 115. ذكر ابن الخطيب أن ذلك تم سنة 372هـ/982م. ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 67؛ النويري، **نهاية**، ج. 24، 96.

(7) لأن أبا يزيد «أخذ نفسه بمذاهب النكّار، يحلل دماء المسلمين وفروجهم، ويسب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.» ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 205.

(8) ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 51.

كما أسهم صمود أعلام المالكية في وجه الابتلاءات والمحن التي طالتهم من قبل الشيعة في انتشار مذهب إمام دار الهجرة، ووصلت أصداء اعتدال المذهب المالكي إلى واحة سجلماسة مبكرا بتمهيد جرئ من الشاكر لله الذي انقلب على المذهب الصفري، وتبنى المذهب المالكي وناصب الفاطميين العداء دون كلل حتى آخر رمق من حياته.[1]

وأورد النويري ما يستشف منه أن موسى ابن أبي العافية كان يلعب على الحبلين، فكان يظهر خضوعه لقرطبة بالولاء والبيعة والهدايا، ويخطب في السر ود زيري بحكم قوته المتنامية وقربه الجغرافي من مجال نفوذه، ولاسيما بعد أن «ضرب زيري السكة، وبسط العطاء في الجند وجعل لهم الأرزاق، فكثرت الدنانير والدراهم في أيدي الناس، واطمأنت نفوس أهل البادية للحرث والزراعة، وصانهم زيري مما كان ينالهم من زناتة. وتمكنت العداوة بين صنهاجة وزناتة.»[2]

ولهذا حاول ابن أبي العافية التقرب من زيري لتوظيف قوة جيشه في القضاء على خوارج غمارة، مظهرا اضطراره للتحالف مع أمويي قرطبة وموهما زيري بالتفكير في نقضها وعقد العزم على الدخول في طاعته، ولما دنا زيري من جراوة «خرج إليه صاحبها موسى بن أبي العافية وكان واليا عليها لعبد الرحمان بن محمد الأموي صاحب قرطبة بهدية سنية وجوار. وقال له يا مولاي إنما استعملت نفسي لبني أمية لأرهب بهم على زناتة، وإذ قد أتاني الله بك وجمع بيني وبينك فأنا عبدك، ومنقطع إليك، وغوثك. أنت مني قريب، وسيف قريب مني أمنع من سيف بعيد.»[3] وحصل ما كان يصبو إليه موسى حين «قربه زيري وأدناه، وقال له: اكتب إلي بما يعن لك، فأنا أمدك بالعساكر متى أردت،»[4] وعلى الفور لم يتردد موسى في توجيه عنايته إلى خطورة مذهب خوارج غمارة بقوله: «إنهم قوم على غير مذهب يبيحون المحارم، وقام فيهم رجل يدعي النبوة، وسن سننا من المنكرات.»[5] فرحل زيري إلى منازلة غمارة وصحبه موسى فأوقع بهم.[6]

---

(1) البكري، **المسالك**، ج. 2، 840؛ ابن أبي زرع، **روض**، 90.

(2) النويري، **نهاية**، ج. 24، 89.

(3) النويري، **نهاية**، ج. 24، 89.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

(6) وأضاف النويري ما نصه: «وأخذ [زيري] الذي يدعي النبوة، فوصل به إلى آشير، وجمع عليه الفقهاء، فقالوا له: إن كنت نبيا فما علامة نبوتك؟ فقال: اسمي في القرآن. قالوا: وما اسمك؟ قال: اسمي حم، واسم أبي من الله. وفي القرآن ﴿حم، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [سورة الجاثية، الآية: 2] فأباحوا قتله فقتل.» النويري، **نهاية**، ج. 24، 89.

إن إغراء الاستقلال بالسلطة كان وراء طموح زيري بن عطية لفك الارتباط بخلافة قرطبة منذ كان في زيارة إليها ملبيا دعوة المنصور بن أبي عامر في شهر رجب سنة 382هـ/ شتنبر 992م، وحمل إليه هدية عظيمة،[1] وهي السنة نفسها التي قطع فيها المنصور بن أبي عامر خاتم المؤيد من الكتب، مقتصرا على خاتمه.[2] فاعتد بقوة نفوذه ونظم على شرف زيري استقبالا رسميا حافلا «وأنزله بقصره جعفر الحاجب، ووسع له في الجرايات والإكرام، ولقبه باسم الوزير، وأعطاه مالا جسيما وخلعا نفيسة وصرفه إلى عمله.»[3]

فلما عاد إلى المغرب، ونزل بطنجة «استقل ما وصله به المنصور، واستقبح اسم الوزارة التي سماه بها... وقال: وا عجبا لابن أبي عامر ومخرقته، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.»[4]

وأخذ يعد العدة الممهدة لذلك، فقضى على منافسيه من بني يفرن الذين استغلوا غيابه أثناء زيارته للأندلس، فاستولى أميرهم يدو بن يعلى على مدينة فاس سنة 382هـ/992م عنوة، فدارت بينهما حروب طاحنة هلك فيها خلق كثير من القبيلتين مغراوة وبني يفرن، وتمكن بالنهاية زيري من إلحاق الهزيمة بيدو بن يعلى، واقتحم عليه مدينة فاس عنوة؛ فقتله ومثل به سنة 383هـ/896م وبعث برأسه إلى المنصور بن أبي عامر بقرطبة، وتعاظمت قوة زيري بالمغرب، ولم يبق له منازع وهابته الملوك.[5]

ثم شرع زيري في الإعداد للمواجهة الحتمية مع ابن أبي عامر فبدأ باختطاط مدينة وجدة داخل نفوذ عرينه القبلي في شهر رجب سنة 384هـ/غشت 994م، وشيد سورها وقصبتها وركب أبوابها، واتخذها قلعة منيعة باعتبارها واسطة بلاده، بعيدة عن الساحل حيث مراصد عيون ابن أبي عامر، وبالغ في تحصينها، وسكنها بأهله وأبنائه، ونقل إليها أمواله وذخائره.[6]

---

(1) «استدعاه المنصور بن أبي عامر مفخما بزيارته ومفتخرا بقدوم مثله، فقدم حضرة قرطبة في شهر رجب سنة 282هـ/شتنبر 895م، وأوصل هدية حافلة من طيور مفصحة بالألسن البشرية ودواب من دواب المسك والغالية وحيوانات غريبة وأسود في أقفاص حديد. واستصحب من قومه ثلاثمائة فارس ومثلها من عبيده وحشمه الرجال. واستخلف ولده المعز على فاس واحتفل ابن أبي عامر في لقائه ونزله وصلاته وكتب له العهد على جميع المغرب.» ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 157؛ ابن أبي زرع، **روض**، 103-104؛ مؤلف مجهول، **مفاخر**، 112-116.

(2) ابن أبي زرع، **روض**، 116.

(3) المصدر نفسه، 104.

(4) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 102-112؛ ابن أبي زرع، **روض**، 104.

(5) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 114-115؛ ابن أبي زرع، **روض**، 105-116.

(6) ابن أبي زرع، **روض**، 105.

وعليه أخذت مشاهد توتر علاقة زيري بن عطية أمير فاس بالمنصور محمد بن أبي عامر تطفح على السطح، جراء اتهام زيري للمنصور بسلب ملك الخليفة الشرعي هشام، وبناء على ذلك أعلن عن تقديم ولائه لهشام المؤيد دون المنصور الذي اعتبره مستبدا على الخليفة المذكور، وأخذ زيري يستنقص من شأن المنصور، وطرد عماله إلى سبتة، مقابل ذلك قطع المنصور عنه إمداداته السنوية التي كان يجريها له.[1]

وبالتالي أعلن التمرد على الحاجب محمد بن أبي عامر سنة 386هـ/996م، «وألغى ذكر المنصور من الخطبة وترك الدعاء له، واقتصر على ذكر هشام المؤيد خاصة.»[2] وبالتبع سار على نهجه أمراء مغراوة؛ حين خلعوا طاعة خلافة بني مروان الأندلسية، اقتداء بزيري بن عطية الذي «صار أمير زناتة كلها في ذلك الوقت.»[3]

وبالتالي جهز المنصور ابن أبي عامر حملتان لتأديب زيري بن عطية سنة 386هـ/996م،[4] حيث قاد الحملة الأولى واضح الفتى، وعسكر المنصور في الجزيرة الخضراء ليكون الدعم قريبا من عدوة المغرب، فدارت بينهما رحى الحرب بالقرب من وادي ردات مدة ثلاثة أشهر تمكنت فيها قوات زناتة بقيادة زيري من إلحاق الهزيمة بواضح وجنوده، وبالتالي لاذ بالفرار إلى طنجة منتظرا إمدادات المنصور.[5]

فعزز المنصور قوات واضح المنهزمة بجيش يقوده ابنه عبد الملك المظفر، فلما نزل بسبتة، قام زيري من جانبه لتعزيز صفوف قواته التي لم تخلد للراحة، فاستجاش قبائل زناتة فأتته الوفود من بلاد الزاب وبلاد تلمسان وملوية وسجلماسة وسائر بوادي زناتة[6] فألحق الهزيمة بزيري بن عطية بأحواز طنجة، ولاذ بجراحه إلى مدينة فاس على إثر طعنة بادره بها غلام أسود في سياق أخذ ثأره منه لأن زيري كان قد قتل أخاه. ومن فاس أخذ زاده وأهله وانصرف إلى الصحراء فنزل ببلاد صنهاجة. ودخل عبد الملك المظفر بن المنصور مدينة فاس منسلخ شوال سنة 387هـ/4نونبر 997م، وكتب إلى أبيه بالفتح؛ وقرئ الكتاب على منبر جامع الزهراء بقرطبة، وعلى منابر قواعد الأندلس.[7]

---

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 274؛ ابن أبي زرع، **روض**، 105؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 177.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 274؛ ابن الخطيب، **أعمال**، القسم 3، 158؛ ابن أبي زرع، **روض**، 105؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 177.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 274.

(4) المصدر نفسه.

(5) ابن أبي زرع، **روض**، 105.

(6) ابن أبي زرع، **روض**، 106؛ ابن الخطيب، **أعمال**، ج. 1، 158.

(7) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 118-119؛ ابن أبي زرع، **روض**، 106-107؛ ابن الخطيب، **أعمال**، ج. 1، 159؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 177.

وكتب المنصور بن أبي عامر(ت392هـ/1001م) لابنه عبد الملك بولاية المغرب، وقرئ الكتاب على منبر جامع القرويين، فأقام عبد الملك في عاصمة ولايته بفاس مدة ستة أشهر[1] ثم صرفه أبوه عنها وحل عوضا عنه عيسى بن سعيد صاحب شرطة ابن أبي عامر وظل بها إلى صفر من سنة 389هـ/فبراير 999م، وعزله وولى على فاس واضح الفتى،[2] وولى يصل بن حميد بن يصلتن بن حبوس سجلماسة،[3] «ودانت للمروانية إمارات فاس وسجلماسة وتاهرت وتلمسان.[4]

ولجأ زيري إلى الصحراء من أحواز سجلماسة مضمخا بدمائه جراء إصابته بطعنة من الغلام الأسود المذكور. ثم أعاد تنظيم القبائل الزناتية، ودخل إلى مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب وتلمسان وشلف والمسيلة، وأقام الدعوة بها لهشام المؤيد، وحاصر مدينة أشير قاعدة بلاد صنهاجة، وبقي عليها إلى أن قضى نحبه متأثرا بجراحاته في محرم سنة 391هـ/دجنبر 1000م. فولي بعده ابنه المعز وقلده المظفر عبد الملك بن أبي عامر(ت 399هـ/1008م) أمر المغرب سنة 393هـ/1002، وصرف واضحا إلى الأندلس.[5]

ولضمان ولاء المعز اشترط عليه المظفر أن يمده كل سنة بعدة من الخيل والسلاح والدرق والأموال، يحملها كل سنة إلى حضرة قرطبة،»[6] وزيادة في توثيق عرى الثقة بينهما أعطاه المعز ولده معنصر رهينة، ولم يرجع إلى المغرب إلا بعد اضطراب أوضاع الأندلس وانهيار الدولة العامرية.[7]

وبالمثل تنازل واضح الفتى لوانودين بن خزرون على حكم سجلماسة سنة 390هـ/999م، وذلك في إطار تسوية تقضي بولائه التام للأمويين أولا، ثم التزامه ثانيا بدفع قدر معلوم من المال إلى قرطبة كل سنة، بالإضافة إلى عدد من الخيل والدرق اللمطية.[8]

---

(1) مؤلف مجهول، **مفاخر**، 121؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 154.

(2) ابن أبي زرع، **روض**، 107؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 4، 177-178.

(3) ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، 154.

(4) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 275.

(5) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 275؛ مؤلف مجهول، **مفاخر**، 122-124؛ ابن أبي زرع، **روض**، 107-108؛ ابن الخطيب، **أعمال**، ج. 1، 158-160

(6) ابن أبي زرع، **روض**، 108؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 275؛ ابن الخطيب، **أعمال**، ج. 1، 158-160.

(7) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 276. «فأقام معنصر بقرطبة إلى زمن الفتنة وانقضاء الدولة العامرية وقنع المعز بما في يده إلى أن توفي.» ابن الخطيب، **أعمال**، ج. 1، 160-161؛ مؤلف مجهول، **مفاخر**، 126-127؛ ابن أبي زرع، **روض**، 108-118.

(8) ابن عذاري، **البيان**، ج. 1، 276.

وخلال بداية العقد الأول من القرن 5هـ11م، حصلت تحولات سياسية ومذهبية في مجال الدراسة، حيث اشتد الصراع بين الإمارات الزناتية حول محاور التجارة ومجالات التوسع والنفوذ، وأخذت إمارة بني خزرون تتسع قوة ونفوذا،[1] مستغلة انقراض الدولة الأموية بالأندلس سنة 407هـ/1016م وقيام الدولة الحمودية، مما مهد بعد أربع سنوات لاستبداد الأمراء بجهاتهم وبداية عصر ملوك الطوائف بالأندلس.[2] هذا في الوقت الذي عرف فيه المغرب نشاط دعوة سنية قادها عبد الله بن ياسين الجزولي في قبائل صنهاجة الصحراء، مما مهد لميلاد دولة المرابطين المركزية المالكية وأفول عهد الإمارات الخارجية.

(1) حافظي علوي، **واحات**، القسم 1، 116-117.
(2) ابن أبي زرع، **روض**، 118.